

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

ليل وقضبان

Night and Bars

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا









دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 0020223937718
تليفاكس 0020223937767
بريد إلكتروني
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

ليل وقضبان

د. نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠٢٣٠/٢٠١٢

الترقيم الدولي:
978-977-255-365-5



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com



كانوا عائدين من الجبل الأسود، والطابور الطويل يمضى منهوك القوى، واجم النظرات، والأقدام المتعبة تلامس الحصى والرمل فى يأس وملل، وفوق الرؤوس شمس تشتعل، إنها شمس أغسطس التى تنصب عليهم بلا رحمة.. كل شيء من حولهم كان قاسيًا رهيبًا، السجّان الذى يصرخ بهم كى يسرعوا، والحرارة الشديدة التى تشوى الوجوه، والعمل الشاق- تكسير الصخور فى الجبل- والظلال النفسية الحالكة التى تجعلهم يعيشون فى ليل الأسى الطويل.. وذكريات نائبة تموج فى خيالاتهم المكدودة.. ذكريات الأهل والحب والحرية.

وتطلع «عبد الحميد» إلى رجل يسير إلى جواره، وكم كانت دهشته عندما رأى الدموع تنهمر من بين أهدابه، وهتف فى انبهار:

- «أنت تبكى يا فارس؟؟».

وحاول فارس أن يكتم شهقات توشك أن تنطلق على الرغم منه، لم يسطع أن يجيب، فاستطرد عبد الحميد:

- «حسبتك لا تعرف الدموع . . لا شك أنك مريض . . ما رأيتك تبكى قط . .

وأخذ «فارس» يجفف دموعه، ورفع ذيل سترته الزرقاء ليمسح عن جبينه العرق، ثم تنهد متحسراً وهو يقول :

- «انظر . . ألا ترى؟؟» .

قال عبد الحميد والدهشة لم تفارقه :

- «ماذا؟؟» .

- «زوجة البك المدير؛ عندما مررنا بها رمقتنا بنظرة احتقار وكأننا كلاب نجسة؛ آه يا عبد الحميد . . إنها شابة حرة جميلة ولا شيء يثقل قلبها عندما رأيتها تذكرت أنى قضيت فى هذا الليمان عشر سنوات . . سجنت وأنا فى الخامسة والعشرين وهأنذا أتخطى الخامسة والثلاثين . . » .

وتطلع فارس إلى السور الممتد، والأسلاك الشائكة التى ترتفع فوقه، وأبراج المراقبة التى يقف فيها عساكر مدججون بالسلاح كالصقور . . لطالما فكر فى الهرب!! فى الليل حيث الأرق والعذاب والضياع يرسم الخطط، ويضع كل الاحتمالات، ويفكر فى الوقت المناسب، ثم يقتنع تمام الاقتناع بخطته، ويصور له وهمه أن تنفيذها سهل ميسور، وفى ساعات قلائل يكون قد أفلت من الحصار

القاسى، واندمج فى الجموع خارج الأسوار ثم يجرى هنا وهناك، ويركب العربات التى يراها تمر من بعيد ويسبح عابرًا الترعة الكبيرة.. ثم تنتهى الرحلة- المغامرة- إلى الإفلات من قيود السجن.. وينام «فارس» هادئًا، وطيوف الأمل تداعب أحلامه.. فإذا ما أشرق الصباح، سقط القناع عن وجه الحقيقة البشعة، وذابت منياته فى الخلاص والتحرر، وتسربت الحسرة إلى قلبه الكسير، وتلونت نظراته بالحزن واليأس، ثم يجيئه صوت السجان قاسيًا لا يرحم، مؤذنًا بالرحيل إلى الأسود لقطع الأحجار وتكسيرها.. وهكذا تمضى أيامه بين أحلام الرجاء، وبراثن اليقظة المرة الإليمة..

وغمغم عبد الحميد:

- «إن عشر سنوات تميت كل شىء.. حتى الرغبة فى الدموع».

- «لكنى عشتها بكل ذرة فى كيانى..».

- هذا هو العذاب بعينه يا فارس.. لو فعلت مثلك لكنت فقدت عقلى منذ زمن بعيد.

وصمت فارس بضع لحظات، ثم تطلع بنظراته الحاقدة إلى السور الذى تكلله الأسلاك الشائكة:

- لقد كرهت كل شىء.. كرهت أبى الذى قتله أعداؤنا.. وكرهت أمى التى دفعتنى إلى الثأر حتى أنا كرهت نفسى.. تصور!!.

وتمتم عبد الحميد:

- وقضاء الله.. هل تمقته..؟.

- بل أتمرد على هذا القضاء!!.

- فأنت ناقص عقل ودين..

فابتسم فارس في مرارة:

- أعرف ذلك.. منذ ارتكبت جريمة القتل.. وأنت؟؟.

- أنا؟؟ إن الإتجار في المخدرات على أية حال ليس ذنبًا يؤرقني لهذه الدرجة.

- أستطيع أن أقول أنا الآخر إن الأخذ بالثأر ليس جريمة بالمعنى الدقيق.

- تستطيع أن تسميه قصاصًا.

- نحن نهذي يا فارس..

وأطرق فارس.. ثم تمتم: أجل..

ولم يصح فارس من شروده إلا على صفعة قوية وقعت على قفاه، فانتفض لها كيانه وكاد ينكفئ، وقبل أن يتمالك قواه هدر سمعه صوت يعرفه جيدًا صوت الباش سجان (الشلقامي):

- تحرك يا بهيم.

وتجمع حقد الدنيا كله فى قلبه، الهدية التى يتلقاها فى بدء عامة الحادى عشر صفعة على قفاه، هذا هو التكريم الذى يستحقه، ورفع إلى الشلقامى عينين تتقدان حنقًا، وتشنجت أصابع يديه كحيوان ضار مستثار، ولمعت أسنانه البيضاء . . يريد أن ينقض على شلقامى بأظافره وأسنانه وكل سلاح، ونزلت الصفعة هذه المرة على صفحة وجه فارس . . فكاد يجن . . صفعة الشلقامى للمرة الثانية فى يوم الذكرى . . قدم له سمًا وشوكًا فى يوم عيد . . ولم يقف عبد الحميد مكتوف الأيدى، إنه يعرف النتيجة لكى تعيش هانئًا فى السجن . . يجب أن تكون ذليلاً . . اخلع عنك كرامتك عندما تخطو عتبة السجن إلى الداخل . . ولهذا أمسك عبد الحميد بزند فارس، وجره فى عنف لعله يوقظه . . وقال وهو يدفعه إلى الأمام:

-امش . .

ومشى منكس الرأس، ذاهل النظرات؛ ومضى شلقامى ليصفع سجينًا آخر يتلكأ فى المسير؛ ودارت رأس فارس، ما الفرق بين قاتل أبيه وبين الشلقامى؟؟ الصفع على القفا دونه القتل، والعجز عن رد الإهانة عذاب ما فوقه عذاب، وأبى فى قبره نائم لا يشعر بشىء . . وأنا أدب على الأرض كأشقى إنسان فى الوجود . . وهمس فارس:

- أليس أبى أسعد حالاً منى؟؟ .

قال عبد الحميد ساخراً :

- لكأنها المرة الأولى التي تصفع فيها .

- لكنها قاسية يا عبد الحميد . .

- هل نسيت أننا خارج العنبر . . وأن الشلقامى يستطيع أن يطلق عليك الرصاص بحجة أنك تحاول الهرب . .

- ليته فعل . .

وبغير مناسبة هتف عبد الحميد :

- آه . . إننى جائع . . وأنت؟؟ .

- لا أشعر بشىء . .

وعاد عبد الحميد ينظر إلى فارس، ويتملى عوده الفارع، وبشرته النحاسية الصدئة ، وعنقه الطويل ، وصدره العارى المشعر ، ولحيته المهملة النافرة ، وعينيه السوداوين اللتين ينبثق منهما الأسى والثورة المكبوتة ، ثم قال :

- والله خسارة فى السجن يا فارس .

- نصيب يا عبد الحميد . .

- أنت ابن ناس .

- والشلقامى؟؟ .

- هكذا الدنيا .

وفى داخل السجن بدا كل شىء كئيبًا . . البناية الصفراء ذات النوافذ الصغيرة، المطبخ البدائى ذو المدخنة التى تتقيأ دخانًا أسود كالحقد، حتى حوض الأزهار الصغير خلف مكتب المدير تقف زهراته فى جمود يثير الأسى، والضوضاء المنبعثة من ورشة النسيج والنجارة والسمكرة ضوضاء قاتلة وكأنها أجراس مبحوحة فى سوق للرقيق . . وهؤلاء الذين يروحون فى فناء السجن لا توحى مظاهرهم الشاحبة بغير الضياع والجفاف والوجوم .

كان المسجونون متراصين فى الفناء الكبير جلوسًا فى طوابير منتظمة، وإناء كبير مملوء بالفول المدمس وإلى جواره تل صغير من الأرغفة، والشلقامى فوق مقعده يوزع الأرزاق كلٌ فى دوره، ولا يكف عن السب واللعن والصراخ بسبب أو بغير سبب، ومن يأخذ «التعيين» يهرول إلى زنزانته كى يأكل ويستريح من عناء النهار، واندس فارس وعبد الحميد ضمن الرفاق، كانت عينا عبد الحميد لا تفارقان كومة الخبز وإناء الفول والبخار المتصاعد منه، أما فارس فقد كان يهيم فى أودية أخرى . . الناس من حوله أشباح . . والشلقامى ممثل على مسرح . . والضباط بما فيهم المأمور والمدير غرباء لا يشعر نحوهم بغير الضيق والنفور . . يكرههم كما يكره الشلقامى والبناية الصفراء والمدخنة والصخور السوداء، والحرارة التى تشوى الوجوه، وذكريات الهوان فى ليل حياته الطويل . .

- بعده . . بعده يا حمار . .

وأفاق فارس على وكزة من عبد الحميد الذي يجلس خلفه، ورأى وجه الشلقامي مكفهراً منذراً بالخطر، يبدو أن الشلقامي صاح به كي يسرع بأخذ نصيبه من الطعام، ويبدو أنه قد استبدت نقمته على فارس وشروده وجموده، وصرخ الشلقامي مرة ثانية وهو يقذف بالرغيف في وجهه ويدفع إليه بطبق الفول المدمس:

- صح النوم . . والنبى لأربيك . . أنا أعرفك صنف لا يستقيم إلا بضرب الحذاء . . لعنة الله عليكم . . كلاب أولاد كلاب . .

ماذا حدث؟؟ فارس لا يدرى، لكن المسجونين جميعًا يذكرونه جيداً، وعبد الحميد هو الآخر فَغَر فاه دهشة، وبقى مسمراً فى مكانه لا يقدر على شيء لقد ذهل حينما رأى فارس يرفع طبق الفول ثم يهوى به على وجه الشلقامى، وفى لحظات انقض على عنق الباشسجان وجذبه إليه، ثم رمى به على الأرض، وأخذ ينشب فيه أظافره، كان فارس يتصرف بجنون، لو كان لديه ذرة من عقل لحمل الفول والرغيف وأسرع إلى زنزانته . وانطلقت صفارات وحدث هرج ومرج، واختلطت الصفوف وتداخلت، ولم يعد يسمع غير أمر واحد:

- «إلى الزنازين . . إلى الزنازين . . ».

لم يكن النداء وحده، بل كانت تصاحبه ركلات ولكمات وهراوات وتهديد؛ وفي لحظات بدأ فناء السجن خاويًا لا أثر فيه للحياة. الصمت وعينان زائغتان محتقنتان هما عينا فارس. ويدان ترتعشان؛ ونظرات قلقة؛ ووجه يختلج غيظًا. . وجه الشلقامى. . وتجلى مدير السجن تلمع على كتفه نجوم وتاج. كان العساكر يقفون وفارس وسطهم كالمحكوم عليه بالإعدام يكاد من شدة تجمعهم حوله وضغطهم عليه ومحاصرته بنظراتهم، يكاد يختنق. لكأنه فى حلم. وطنت فى رأسه المتعبة عبارة «الذكرى العاشرة» عشر سنوات. . بلا حنان. . بلا حب. بلا حرية. والشلقامى لا يفارقنى لحظة حتى فى نومى. . إنه العذاب. وتطلع إليه المدير فى احتقار كاحتقار زوجته وهى ترمق طابور السجناء من الجبل إلى السجن:

- فاكر نفسك بنى آدم. .

قال المدير وسمات الاشمئزاز على وجهه؛ ووجد فارس نفسه يقول:

- أبدًا يا بك. .

- عشر سنوات ولا يفهم الأصول؟؟.

- نسيت نفسى.

- ستتذكرها فى التأديب. . وعندما تجلد بالسياط. .

- الرحمة يا بك . .

وانهالت عاصفة من الصفعات على وجه فارس ورأسه من العساكر المحيطين به، ولم يستطع من خلال الأيدى الكثيرة التى تتسابق إليه فى عنف أن يرى وجه المدير ولا أين ذهب، ترنح ثم سقط ولم يقف من غيبوبته إلا فى زنزانته، وتلفت حوله، كان وحيدًا إلا من أحلام مضطربة سوداء كالأرض التى يرقد عليها . . وتمتم فى أسى . .

- كان احتفالاً رائعًا . هيه . . الذكرى العاشرة . .

وبعد نصف ساعة أو تزيد تنهد . . ثم مسح شفتيه بطرف لسانه، وحاول أن يبتلع ريقه؛ لكن لعابه كان قد جف، ولم يخجل من نفسه وهو يردد فى ذلة :

- آه . . كم أنا جائع . .

وتحرك صوب باب الزنزانة المغلق، وأخذ يدقه فى عنف، طالبًا من السجّان أن يتكرم عليه بنصيبه من الطعام . .





هب عبد الهادى بك من مقعده، لم يكن خفيفًا نشطًا وإن تصنع ذلك إن بطنه المتفخ، والثنيات التى تخطط عنقه، والشحم الذى يتكاثف حول عينيه، كلها توحى ببطء حركته، وتثير الشك فى أن الأميرلاى عبد الهادى بك مدير سجن أبى زعبل كان يومًا ما شابًا عسكريًا أنيقًا يلفت النظر. . كان يرفع رأسه فى اعتداد وهو يغادر غرفة مكتبه، وينظر شزرًا هنا وهناك، ويلقى باللوم على هذا السجّان الذى يقف فى خلاعة، ويؤنب الصول الذى لم يحلق لحيته فى الصباح، ويلعن ذلك المسجون السخيف الذى يسترق النظر إليه. . الجميع يعرفونه متوترًا صاخبًا دائمًا، قلما يبتسم أو يمرح، والسجناء يعرفون عنه القسوة المتناهية. . ورجل القسوة هل رجل النظام، ومن ثم فإن حادثة فارس كانت شاذة وغريبة، أثارت حفيظة البك وألهبت غيظة، فلم ينس أن يوصى به (خيرًا)، وأن ينال ما يستحقه من تأديب وتهذيب و. . إصلاح. . وما أن ظهر المدير بعوده المكتنز المتوسط الطويل. . حتى تعالت النداءات

العسكرية ذات المصطلحات الخاصة، وكلها تنبى أن حاكم المستعمرة المظلمة يتحرك. . وتراص السجانون على الجانبين كالتماثيل وأيديهم تحازى جباههم، وكذلك فعل الضباط. وأطرق السجناء فى ذلة لا يستطيعون رفع رؤوسهم أو مجرد الهمس. . وما أن خطا خارج عتبة السجن حتى انزاح الروع والخمود، وعادت الحركة واللغط، وتعالت صيحات المسجونين والسجانين، وساد السجن لون من الحرية. . الحرية بمفهومها الضيق التعس.

ومنزل المدير يقع على الشارع العمومى الذى يمتد من القاهرة إلى الشرق لا يبعد كثيراً عن مبنى السجن، إنها خطوات معدودة يقطعها البك كل يوم ذهابًا وإيابًا، فى أوقات محددة صيفًا وشتاء، ولولا إحساسه الداخلى بأنه سيد، وأنه يستطيع أن يفرض العقاب، ويطلق الشتائم ويوقع على بعض الأوراق بإمضائه، ويتسلم مرتبه آخر كل شهر، لولا هذا لبدت حياته الرتيبة الجافة، شبه الفارغة كحياة السجناء تمامًا.

كانت السيدة حرمه «عنايات هانم» تجلس فى الحديقة الصغيرة مشغولة بأعمال التريكو لا ترفع عينيها عن الإبرة والخيط، ولم تستطع أن تنسى أن زوجها قادم بعد لحظات. . كانت يداها مشغولتين بالإبرة والخيط، لكنها تفكر فيه. . فى عبد الهادى بك. وهى مضطرة إلى ذلك لقد حرمها القدر من الأبناء. . فليس لديها

طفل تهتم به وتفكر فيه، عبد الهادى هو طفلها ورجلها وحياتها.
وكما ارتضى المذنب مصير السجن فقد رضخت عنايات لمصيرها
ولزوجها.. إنه قادم الآن. حضوره لا يحرك فيها نزعة كالتى
كانت تحلم بها وهى فتاة تفكر فى الحبيب المجهول، هى لا تذكره إلا
وتتذكر معه حقن الأنسولين.. عبد الهادى بك والأنسولين شىء
واحد. منذ أصيب بمرض السكر اللعين وهى تمارس عمل
الممرضة، تحقنه كل يوم تحت الجلد، وتقوم بعمليات التحليل
البدائية، وتجرعه العقاقير التى لا تنقطع إلا لتعود من جديد. سواء
أكانت وحدها مع خادمتها أو إلى جوار زوجها فإن مشاعرها لا
تتغير، الملل والوحشة وإحساس الغربة هى كل رصيد روحها،
لطالما فكرت فى ذلك الرباط الذى يضمها إلى زوجها، لا حب،
ولا حتى الصداقة المجردة، ولا أبناء، إنها زوجته فقط، والزواج
مقدس، هنا النقطة التى تجعلها تحيا وتتنفس وتبتسم فى وجهه
وتشاركه الحياة. وابتسمت فى مرارة حينما تردد فى ذهنها الكلمة
المأثورة لدى النزلاء «ياما فى السجن مظاليم» أتراها فى السجن
مثلهم؟ وسمعت صرير الباب، وحركة البواب والخادمة، ففهمت
أنه أتى، كالعهد به متوترًا متعبًا ساخطًا، وبعد قليل سيجلس إليها
ليحدثها عن متاعب السكر ذلك الداء الملعون وكالعادة سيحدثها
عن متاعب المسجونين وشغبهم والجهد الجبار الذى يبذله للسيطرة
التامة على هذه المجموعة الشاذة من الأفاقين واللصوص والقتلة

وتجار السموم. ونفاية المجتمع. . ثم قامت فى تكاسل وهمست دون انفعال :

- الطعام جاهز .

- والأنسولين؟ .

- موجود . . والمحقن معقم . .

- شيء رهيب زعم الطبيب أن عندى ارتفاع فى ضغط الدم، ويشتبه فى تصلب الشرايين وحذرنى كثيرًا من الانفعال والإرهاق، وأعطانى قائمة طويلة من الممنوعات .

- غدًا تشفى . .

قالتها دون اكتراث، أما هو فقد استطرد :

- دنيا . . ما سمعت قط أن سجينًا أصيب بمرض من هذه الأمراض إنهم يعيشون كالحيوانات، لا زاد غير الفول المسوس وخضروات البهائم، ونفايات من اللحم والخبز ومع ذلك . . آه . . هذا ظلم .

وطنت كلمة «ظلم» فى رأسها، وتطلعت إلى التاج الذهبى فوق كتفه وإلى وجهه المكتنز المتوتر، والبلادة التى تشى بها حركاته، وغمغمت فى أسى :

- أجل . . ظلم . .

ومع ذلك فقد قال وهو يحاول جذبها إليه فى رقة مفتعلة :

- لكنك عندى بالدنيا .

وتمنت فى تلك اللحظات أن تصرخ فى وجهه «أكرهك . . أكرهك» لماذا يحاول مغازلتها ، إنه أبعد ما يكون عن الرجل الكامل ، وهى لا تشعر أنها امرأة ولا تستمتع بحقوقها كأنثى وزوجة إلا من شهر لآخر إنها تقف على قمة اثنين وثلاثين ربيعًا . . عز الشباب . . وهو يرتكز على خمسة وأربعين عامًا وشرايين متصلبة ، وضغط دم مرتفع . وسكر . وفراغ . فراغ . . فى التفكير والمجاملة والمداعبة . . إنه يعيش فى نشوة كاذبة ، مصدرها السلطة المطلقة فى هذه المستعمرة الكئيبة ، غمغمت دون وعى :

- أشكرك . . لنأكل أولاً .

قال وهو يلقى بجثته على المقعد :

- لقد قررت أن أشترى لك عقدًا ذهبيًا مطعمًا بالجواهر .

ونظر إليها فى زهو المنتصر القادر ، لا شك أنها ستأتى لتقبله ، وتسبغ عليه شكرها وعرفانها بالجميل إذ سيجعل منها ثروة متنقلة ، أما هى فقد كانت تعانى ألمًا قاتلاً ، لقد سلب ها الحب وأعطاها الذهب . الحب هو الجوهر التى تبحث عنها ، لكنها وجدت نفسها تقول وابتسامة غريبة ترتجف على ثغرها . .

- يا سلام يا حبيبى . . أشكرك . .

- كل فائض هو لك . . أنت حياتى . .

يعاملها بمنطق تكرهه، لها الفائض وحده، أما الضرورى فلا . . كانت تريده عاشقًا يضحى بكل شىء من أجلها حتى الضرورى . وكانت تريده جزءًا من كيانها وروحها، لكنها تشعر إزاءه بانفصام أزلى، مجرد نزيلة فى بيته الأنيق . وهى تعرف من أين يأتى بهذا الفائض تعرف أنه يتواطأ مع متعهد التغذية فى السجن، ويسلب من المعذبين خلف الأسوار جزءًا من أقواتهم الضرورية، وهى تعلم أن بضعة جنيهات كفيلة بأن تنقل المسجونين من جحيم العمل فى الجبل الأسود إلى الأسِرّة الوثيرة فى المستشفى بحجة المرض الكاذب . هى تعرف أشياء كثيرة . . والذى يعذبها أن هذه التصرفات المريبة تتحول إلى جنيهات، وهذه الجنيهات تتحول بدورها إلى أقراط ذهبية وأساور وجواهر تتحلى بها، وعقاقير لزوجها . وعذاب ينهش فى قلبها . تتحول إلى مستنقع ضخم تغرق فيه روحها الضائعة المحرومة من احتياجاتها الحقيقية .

- أنا لا أتصور كيف كنت أعيش بهذا الجحيم وحدى .

لم تحتمل، أرادت أن تطعنه فى صميم كبريائه، أن تجعله يقاسى شيئًا من المرارة والعذاب النفسى الذى ينطق عليها، وعلى رجال المستعمرة الكابية خلف الأسوار، وهتفت فى سخرية :

- إنك فعلاً تعيش وحدك.

فرقع إليها عينين حائرتين:

- لكنك معى يا حبيبتى..

- لا يهم.

- ما معنى ذلك؟؟.

- أنت تعرف.. أنا مجرد ممرضة.. كنت أحسب أننا سنعيش كعشاق فى المنفى.

وتمتم: عشاق.. منفى؟؟ ماذا تقولين؟.

لم يخف عليه قصدها، إنها تغمزه فى رجولته، وتصفه بالعجز، وفشله فى تمثيل دور الزوج العشيق، وغرس الملل والضيق فى حياتها النابضة بالأشواق والرغبات، واستطرد وهو غارق فى خجله:

لا تحزنى لطالما استمتعنا فى الأيام الخوالى. ومع هذا فقد أشار على الطبيب باستعمال حقن «البراندرين». إنها هرمونات.. أتفهمين.

قالت فى عنف:

- الطعام جاهز.

وتطلع إلى خديها المتوردين، وإلى توثب الحياة خلف نظراتها الفاتنة الحزينة، وإلى شعرها الثائر المرسل، وفمها الصغير المزموم ذي الشفتين الوسيمتين، وشعر بشيء من الحقد الممزوج بالقلق، ووجد نفسه يقول في هزيمة:

- لقد أصحبت وقحة يا عنايات.

- وأنت؟ أناني جشع!!.

ودق المنضدة بيده في جنون:

- هل فقدت عقلك؟.

- كنت استرحت منذ زمن طويل.

- لكني لا أصدق أذني.

- تلك هي الحقيقة.

- انفجار لم أتوقعه.

هذه الرقيقة المهذبة الصامتة تتحول إلى وحش، إنها تسحق ثقتي، وتهد من قواي، وتنضم إلى أعدائي.. السكر والضغط وتصلب الشرايين.. خسئت إن لم أنقض عليها وألقنها درسًا لا تنساه، والتفت إليها ثم هب واقفًا، وفي لحظات كان ممسكًا بذراعها:

- لا بد أنك نسيت الأدب.

- لا تلمسني.

لكن يده كانت أسبق، فقد صفعها.. ووضعت يدها مكان الصفعة ثم تكورت كقطة خائفة، وتطلعت إليه من ركن الحجرة بعينين مبللتين، ووجه محتقن مرتعش، وصرخت كما لم تصرخ من قبل:

- أكرهك.. أكرهك.

ثم انفجرت باكية.

أفاق إلى نفسه، يده تؤلمه من أثر الصفعة التي أهوى بها على وجهها، هذه الصغيرة الوديعة ما كانت يجب أن يقسو عليها هذه القسوة، ماذا يفعل الآن لو فرت هاربة وتركته هنا فريسة للوحدة والفراغ والمرض؟؟ لا شك أن عقله يفر هو الآخر ويتبعها، لا شك أنه أخطأ في حقها.. كانت بالتأكيد تمزح وإن كان مزاحها ثقيلاً.. وكان عليه أن يفسح في قلبه مكانًا لمزاحها وعبثها الثقيل، وبقليل من الدهاء وحقن «البراندرين» يستطيع أن يذهب ألمها، ويلون حياتها بالبشر والمرح، واقترب منها ملاطفًا:

- آسف يا حبيبتي.. لم أكن أقصد إيلامك.. أنت حياتي. ألم أقل لك ذلك ألف مرة.. قطعت يدي إن تناولتك بسوء مرة أخرى.. سترين أننا سنكون أسعد حالاً. آسف. أعطني يدك أقبلها.

واختطف يدها ووضعها على شفتيه المرتعشتين، كانت.أنفاسه لاهثة ساخنة، لم تحاول أن تنتزعها منه، طأطأت رأسها، وحاولت أن تكف عن البكاء، وكم كانت دهشتها عندما شعرت بقطرات دموعه، تلامس ظاهر يدها.. الأميرالاى عبد الهادى بك يبكى، الرجل الذى يثير اسمه الرعب فى قلوب رجال المستعمرة، والذى ترتفع له الأيدى بالتحية فى كل مكان.. هذا كثير.

واقتربت عنايات منه، وطوقت عنقه الممتلئ بذراعيها النحيلتين، ثم جذبته إليها وعيناها تنطقان بالأسف والندم. وغمغمت:

- معذرة.. كان حلمًا مزعجًا.

- هذا ظنى بك.. لو كان لك ابن لما.

فقاطعته قائلة وهى تضع يدها على فمه:

- لا تفكر فى ذلك.

- إرادة الله. حاولت كثيراً دون جدوى.

- إن ما حدث مجرد زوبعة تافهة.. والآن ضمنى إليك.. ضمنى إليك فى عنف وحرارة.. أنا لك وحدك.. آه.. كم أنا غبية!!.

- حتى فى ثورتك وخطئك تزدادين روعة.

●●●



هدأت العاصفة، لكنها لم تمر دون كدمات نفسية، تخاذل عبد الهادى بك حتى بدا ككهل يدنو من الستين، وارتاب فى عصفوره الجميل مخافة أن ينطلق بعيداً عنه ذات يوم، لينعم فى سماء القاهرة وأجوائها المرحة، ثم يبقى وحده فى أبى زعبل رهين المحبسين: مرضه وخيبة أمله، لكم يعذبه هذا الشعور ويورثه خوفًا مبهمًا دونه الموت، لكن لماذا يستسلم هكذا بسرعة لأوهامه وخواطره السوداء، إن عنايات ساذجة غريرة، وبقليل من الدهاء والتملق يستطيع أن يجعلها أسيرة حدبه، وطوع بنانه، وبداية الطريق أن يستسلم لها أو يتظاهر بذلك، هذا الرضوخ المتعمد هو بداية لامتلاكها والسيطرة عليها.. ثم لماذا هو الحرص الزائد الذى يدفعه لأن يجعلها كالسجينة فى بيتها.. يجب أن يأخذها ويتردد على القاهرة لينعم معها بأنديتها وزيارة أقاربها، والتسلى فى ملاهيها، كثرة الضغط تولد الانفجار تمامًا كما حدث لذلك السجين المتمرد «فارس» لقد

قبل الإهانة صابراً. واستسلم للصفع على القفا، وصم أذنيه عن العبارات الجارجة، وفي النهاية انفجر، وحاول أن يفتك بالشلقامي. ما أغبى عبد الهادى!! لقد رأى عشرات الحوادث طوال عمله في السجون.. هناك تعقيدات لم يكن لها حل سوى المداهنة واللباقة، وأشياء أخرى عسيرة كانت تحلها العصا أو الكرباج.

وذهلت عنايات عندما أخبرها زوجها في الصباح أنهما سوف يقضيان الأمسية في القاهرة ليرفها عن نفسيهما، ويتخففا من أعباء العمل والجو الخانق الذي يعيشان تحت وطأته.. لكن اللطمة التي وجهتها إليه بالأمس قاسية رهيبة. وكلمة «أكرهك» انغرست في قلبه الجريح كخنجر مسموم. وتعبيرات وجهها وهي تنفجر فيه أوحت بالكثير من الانفعالات المتخبئة القاتلة، وراودته الهواجس من جديد ماذا لو هربت منه؟ ماذا يفعل؟ لو حدث ذلك لقتلها. أجل. القتل أخف عقاب لمن يطعنه في كبريائه وشرفه.

وابتهجت عنايات عندما علمت بأنباء الساعات الشجية الحلوة التي ستقضيها في القاهرة. وأخذت تعد ملابسها وزينتها وحقيبة يدها، لكأنما تحس أن حبالاً غليظة كانت تضغط على عنقها، ثم تفك واحداً تلو الآخر، وينمحي ضغطها رويداً رويداً، وتبدأ في استنشاق الهواء ورائحة الحياة.

ودخل عبد الهادى بك إلى السجن، وساد الصمت الممزوج

بالرهبة، واصطف الجنود على الجنبين، وصدرت التحية المميزة، فازداد الجو رهبة وصمتًا، ولم تعد تسمع غير خطوات البك المدير وهي تصفع الممشى في كبرياء وغطرسة، كان كل يوم تهزه هذه المظاهر، ويطرب أيما طرب لهذا الاهتمام الكبير الذي يرتسم في عيون الجميع سجّانين ومسجونين، ويخالطه إحساس حلو لذيذ بأنه فوق الجميع، وأن الرجال هنا يحسبون ألف حساب لصولته وسطوته. كل شيء تحت أمره. لكنه اليوم. اليوم بالذات يشعر شعورًا مغايرًا، من أدراه أن هؤلاء الذين يرتلون في محضره ترانيم التقديس والتكريم، قد ينقلبون عليه فجأة كما انقلبت زوجته بالأمس، ويكشفون عما استتر من نواياهم وحقيقة مشاعرهم نحوه؟ أليس من الممكن أن قلوبهم الآن تلعنه وتبصق عليه؟ وشعر عبد الهادي بك بحقد هائل نحو الجميع. وتمنى أن لو اشتعلت النيران في هذا المكان كله والتهمت الأخضر واليابس والكائنات البشرية الحقيرة التي تفتح عيونها في تبجح وجسارة. لشد ما تزعجه عيون البشر. هؤلاء المسجونون في نظراتهم لغة لا يفهمها إنه يستطيع أن ينتزع منهم كل شيء بقوته وسطوته. إلا نوايا قلوبهم. كانت عنايات أليفة وديعة لكنها قالت له بالأمس أكرهك عنايات هي التي قالت ذلك، وسمعها بأذنيه، ورأى شفتيها وهما تتحركان، ورأى الشر والحقد على وجهها. كانت كلماتها حارقة كالسياط التي يشوى بها ظهور المذنبين في الليمان. كالنار التي تأكل دون شبع.

ولم يكد يستقر على مقعده حتى جاء الضابط النوبتجى وأدى التحية ثم قال :

- مات أحد المسجونين اليوم بعد الفجر فى زنزانته .

- ولماذا لم يمت فى المستشفى !؟ .

- لا أدرى لكن الطبيب لم ير داعيًا لذلك بالأمس .

- مات فجأة إذن .

- أجل . .

- أجل . .

- فى ستين داهية . لقد ارتاح .

- فعلاً . . فعلاً . . يا سعادة البك .

ووضع إمضاءه فى ذيل ورقة قدمها الضابط ، ثم عاد إلى العواصف الطاحنة التى تثور فى رأسه . لكنه لم يخلد إلى نفسه ، كان هناك طابور طويل من المذنبين الذين ارتكبوا أخطاء ، ولا بد من عرضهم جميعًا على سيادة المدير . منهم من يستحق الجلد ، ومنهم من تكون عقوبته الحبس الانفرادى وتخفيض وجبة الطعام الضئيلة إلى النصف ، ومنهم من يضاعف له العمل (المقطوعية) فى الجبل ، وليس فيهم واحد ينال العفو والتبرئة . هكذا جرت العادة .

وتقدم المذنب الأول: فارس إبراهيم الخطيب، وتطلع المدير إلى أوراقه ثم أخذ يقرأ بصوت مرتفع (إنه في يوم السبت الموافق اعتدى على السجان (الشلقامى عوض) بالضرب والسب أثناء تأدية عمله).

وقبل أن يرفع رأسه جاءه صوت فارس ضارعًا:

- أبدًا يا سعادة البك.

- اخرس يا كلب.

- هو الذي ضربني وأهانني أمام الجميع.

- وهل معنى ذلك أن ترد عليه بالمثل؟! ألا تعرف نفسك!؟ أنت مجرم حقير لا ثمن لك، أستطيع أن أدفنك هنا، ليس عندنا تدليل.

- أمرك يا سعادة البك.

وسدد المدير إلى فارس نظرات ارتجف لها كيانه، كان قويًا فارغًا كأبطال الأساطير، ولم يدر المدير كيف نطق قائلاً:

- اسمع يا فارس.

- عبدك يا سعادة البيك.

-ألم تمرض قط!؟.

وذهل فارس، ما معنى ذلك، هل لو كان مريضًا لنجا من العقاب.

- السجن هدّ قواى يا سعادة المدير.

- لكنك كالحصان .

- بالضبط . بالضبط . حصان ، حمار كما ترى سعادتك .

- أعنى ، ألم تصب بالسكر .

وانتعشت روح فارس ، السيد المدير يمزح معه ، لا شك أنه معتدل المزاج ، ستفلت من عشرين جلدة يا فارس ، لو سارت الأمور على هذا المنوال .

- يا سعادة البك نحن لا نرى السكر إلا فى الأحلام .

وتمتم المدير بينه وبين نفسه : وأنا أراه فى البول والدم كل لحظة . أكياسه تملأ المطبخ وأنا لا أجرؤ على تناول قطعة منه ، وهؤلاء الأوباش لا يرونه إلا فى المنام .

- هل تزوجت يا فارس؟ .

- رحمه الله أبى كان السجن أسبق إلىّ من الزواج وتنحنح السجان ، لا شك أن المدير قد شرب كأسًا هذا الصباح ، إنه لا يحسن التعبير أين حصافته وشدته وزعيقه الذى يخلع القلوب ، كان عليه أن يبقى فى بيته حتى تستقيم حاله ؛ والتفت المدير إلى السجان وعيناه تقدحان شرراً :

- لماذا تتنحنح يا شلقامىَ؟ .

قال الشلقامى فى ذعر :

- هذا المسجون أهانني على رؤوس الأشهاد. لقد أضحك عليّ كل من في السجن، فدق المدير المكتب بقبضته وصاح:

- قلت لك لماذا تتنحنح؟

- أ. . أ. . يا سعادة البك المدير. أ. . أ. اللعنة على السعال.

- اخرج من هنا يا عسكري، خصم يومين. . لكن قف انتظر لقد صفحت عن هؤلاء المسجونين جميعًا. . يجب أن يعودوا إلى أعمالهم الطبيعية، وأن يخرجوا نهائيًا من زنزانات التأديب. . مفهوم؟؟.

- مفهوم يا سعادة البك.

- ومخصوم لك يومان. . مفهوم.

- مفهوم. . مفهوم يا سعادة المدير.

ليالي أبي زعبل هادئة رائقة لولا الأسوار والقيود، وجيوش البعوض التي تزيد الأرق والقلق، وفارس جالس فوق برشة يغني، ويردد المواويل عن الدهر، وقسوة الزمان عن الأشواق والخلان، ولا يفتأ يترنم: «قلبي عشق بنت بيضة واسمها هانم» وعبد الحميد يجلس قبالته، وينعكس على شاربه الكثّ ضوء القمر، وفي ركن آخر شيخ في الستين من عمره اسمه «الشيخ سلامة» محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، ويقال إنه قتل أخاه من أجل الميراث، وقد شهدت عليه زوجة أخيه «نبيهة بنت حسن عرفات» تلك التي لا

يكف عن تردد اسمها، والتى يعرفها كل من بالسجن لكثرة ورود اسمها على لسان الشيخ سلامة، ويخاطب أشباحًا غير مرئية، ويحتد فى مناقشات وهمية، ويصب لعناته على «نبيهة بنت حسن عرفات» ويزعم أنها وباء، وريح صفراء، ويهودية بنت يهودى. إنه ملتاث العقل برغم عودته من مستشفى الأمراض العقلية، وبرغم تقرير الطبيب بأنه «صالح للسجن تمامًا» وكيف يكون عاقلاً من يقف الساعات الطوال أثناء الليل داخل الزنزانة ويمسك بحذائه ملوحًا بها ويهتف فى صوت متحشرج: (اخرجى.. اخرجى يا مجرمة وإلا استدعيت البوليس) وأحيانًا يلجأ إلى الصمت المطبق لا يفتح شفتيه لبضع ساعات، وليس يبدو عليه شىء غير عادى إلا تلك النظرات المخيفة المسددة إلى المجهول!!.

وما أن انتهى فارس من الغناء حتى التفت إلى الشيخ سلامة قائلاً:

- كيف حال نبيهة معك!!.

- اسمعوا!. إنها تشتمنى بنت المركوب. حسنًا سأضع القطن وقطعتى الصفيح فوق أذنى. لو كان هناك حكومة لما تركوها تأتى إلى هنا إنها وباء. كوليرا. يمينًا بالطلاق إنها كوليرا اخرجى اخرجى.

وتضج الزنزانة بالضحك، ويهتف عبد الحميد: أنت تحفة يا شيخ سلامة.. لكم تحدثنى نفسى أن نبيهة غدرت بحبيبها، بك يا شيخ سلامة يا راجل يا ثعلب. لكن قل لى: كيف قتلت أخاك!!؟.

ويثور الشيخ سلامة ويهب واقفًا بعوده القصير ولحيته البيضاء، وينتصب كالشيخ وسط الزنزانة التى تغرقها العتمة، ثم يرغى ويزيد، ويتناثر اللعاب من فمه، ويلوح بكفه المتشنجة، ودموع تتفجر من عينيه ويصرخ مهتاجًا: نبيهة بنت حسن عرفات. إنها وباء. إنها كوليرا. إنها تكلمنى بالتليفزيون. تصوروا بالتليفزيون!! هل منكم من سمع عن التليفزيون؟.

ويعود الهدوء، وتسبح الخواطر والآمال فى عالم الصمت والظلام، ويكف الشيخ سلامة عن الهذيان، ويهمس فارس:

- كان تصرفًا غريبًا من المدير اليوم.

- السجن كله يتحدث عن ذلك.

وقهقه فارس:

- المهم الشلقامى.. ثم حاول تقليد لهجة المدير: خصم يومين يا شلقامى اخرج من هنا. لقد خرج منكس الرأس ذليلاً، وانتشرت شائعة فى السجن تقول إن فارس قريب من البك المدير، فارس من المحظوظين. ها. ها.

وساد الصمت من جديد، كل واحد منهم ذهب إلى بعيد بأفكاره الشاردة، فارس إلى السنوات العشر الطوال التى سرقها الشيطان من أينع أيام عمره، والشيخ سلامة تائه فى عوالم غريبة

ممتلئة بالأشباح والأوهام والذكريات المريرة ونبيهة بنت حسن عرفات، وأخيه القتيل، وعبد الحميد هو الآخر يحاول أن ينزع عن نفسه قناع المرح الكاذب والسخرية المفتعلة إنه لم يعد يجهل شيئًا، لقد بلغته أخبار أكيدة عن تنكر زوجته ومرافقتها لرجل آخر، ومال فارس على أذن عبد الحميد هامسًا:

- فيم تفكر!!.

- في السافلة التي خانت العيش والملح.

- لكنها امرأة ككل النساء.

- لكنها زوجتي يا فارس وأم طفلي!.

- لم تعد تزورك!؟.

- زارتني منذ ثلاثة أشهر لكنها.

- ماذا!؟.

- كانت معه.. مع الحقير الذي خلب لبها تصور!! تشككت في الأمر ثم بصقت في وجهيهما، وعدت ذليلاً تشيع موكبي الحزين نظراتهما الفاجرة!!.

قال فارس وهو يحاول أن يبدد جو الكآبة الذي ينشر جناحه الأسود فوق عالمهم الضيق:

- أهى جميلة؟!.

- كقطعة حلوى يرتمى عليها الذئاب.

- إذن فهى وباء كوليرا كما يقول الشيخ سلامة.

- وانبعث فجأة صوت من خارج الباب المغلق:

- أليس فيكم كهربائى؟!.

ووثب فارس كقط شرس وقال فى ثقة:

- أنا يا باشسجان كهربائى. جناينى. سباك. نجار. ألف صنعة.

- حسنًا. . توصيلة النور فى حاجة إلى تصليح. انتظر حتى نأخذ الأمر بفتح الباب. . كن مستعداً.

وتسلل الرضا إلى قلبه، سينزل فارس ويرى الليل والقمر والهدوء الصافى، وينظر إلى الزنانين- تلك الصناديق الصغيرة المغلقة بالسواد- إنها أول مرة يرىَ السماء فيها خارج الزنزانة.

●●●



لم يف المدير بوعده، فلقد ألزمته الفراش وعكة خفيفة، ولهذا عجز عن السفر إلى القاهرة، تضايقت عنايات هانم بعض الشىء، دائمًا تسير الأمور على غير ما تشتهى، أشياء كثيرة فى حياتها تؤكد ذلك فمثلاً عندما نالت البكالوريا كانت تريد أن تتم تعليمها، لكن أباها آثر أن يمضى فى إجراءات الزواج، حتى الزواج نفسه، كانت تميل إلى شقيق زوج أختها المهندس، لكن مجلس العائلة الموقر فضّل عليه عبد الهادى بك، وكانت تتمنى أن يكون لها أولاد تهدهدهم وتناغيهم؛ وشاء القدر أن يكون زوجها عاقراً، حتى الأمنيات الصغيرة فى حياتها لا تتحقق إلا فى النادر، فأورثها ذلك يأسًا وشكًا فى الحياة، وعندما أوى زوجها إلى سريره جلست إلى جواره تحاول جاهدة أن تواسيه، أن تؤدى دور الزوج التى يحزنها أن ترى زوجها طريح الفراش؛ وفجأة انطفأ النور. زمجر عبد الهادى فى ضيق، وأخذ يسب الكهرباء وصانيعها؛ ومن خلال النافذة كان نور السجن يبدو متوهجًا. لا شك أن أسلاك التوصيلة قد احترقت. وكم كان

غريبًا أن ترتاح عنايات للظلام. ففيه تصطرع الآمال الجريحة والذكريات، وتكبر الأوهام، ولا ترى وجه أحد وابتسمت وهى تهمس: «رائع» وتمتم زوجها فى دهشة.

- ماذا تقولين؟

أفاقت إلى نفسها، وأدركت شدوذ كلماتها، كان زوجها يلهث من شدة الضيق والمرض، ويبحث جاهدًا عن أعواد الثقات:

- أقصد أن الجو رائق صاف.

- لكن الظلام يكاد يخنقنى.

- حالاً سأضىء المصباح الغازى.

-بل استدعى أحد الكهربائية من السجن، حتى ولو كان مسجونًا.

فى الظلام انتعشت فى قلبها رغبات نائمة ارتبط الليل فى ذهنها بنجوى الحب؛ وهمسات العشاق، وحديث القبل والعناق الخالد. هكذا كانت وهى فتاة لم تتزوج وخمدت هذه الأحاسيس منذ أن تزوجت. لكنها اليوم ليست تدرى لماذا تستيقظ فى حرارة وعنف وأغمضت عينيها حتى لا ترى شيئًا -ولكى لا تصطدم بمرأى زوجها المستلقى على سريره والذى أخذت أضواء بعيدة خافتة تتسلل وتحدد معالمه تحديدًا غامضًا.

كان فارس وخلفه حارس مدجج بالسلاح يفتح صدره ورئتيه لنسيم الليل وانسياب ضوء القمر ويتطلع فى نهم إلى المجرى الفضى الواسع بعض الشيء ويتسمع أصوات الدواب والكلاب والديكة القطارات التى تفد من بعيد وعندما دخل منزل البك المدير أطرق فى خشوع كان خائفًا، إن فشله معناه.. معناه العار، يجب أن يكون ماهرًا.. إنه بيت البك المدير وسادت جسده ارتعاشة وهتف من أعماقه «يا رب»، وفى داخل المنزل كانت الخادمة تقف منزوية حاملة على كفها المصباح الصغير، وبعد لحظات قدمت سيدة البيت، خرجت من أحد الممرات الجانبية، وظلال مرتجفة تتراقص على وجهها الفاتن، وشحوبها الحزين يوحى بالوقار والتقديس قبل أن يحوى بالألم.. تخشب الحارس فى مكانه وأدى التحية الرسمية التى يؤديها للمدير وخشع «فارس» وتدلت يداه لم يستطع أن يستمر فى استراق النظر إليها وتسربت إلى خياشيمه رائحة غريبة أثارت النار فى جسده وغمغم بينه وبين نفسه: اخسأ يا ملعون!! من أنت؟ صعلوك وهى ملكة بلا تاج. أنت الأرض وبأقذارها وهى السماء بجلالها وروعتها. أنت لا شيء وهى كل شيء. لو علم المدير ما يدور بخلدك الآن لمزق أوصالك، ولجعلك طعامًا للكلاب!! إنها أحلام إبليس فى الجنة. وانبعث الصوت الموسيقى الحزين:

- هل تفهم فى الكهرباء؟

قال فارس دون أن يرفع عينيه عن موطئ قدميها :

- بإذن الله . . قضيت فى مدرسة الصنائع عامين .

- تفضل .

قالتها ثم خطت صوب مكان التوصيلة فى وقار وصدمت كلمة «تفضل» سمع فارس إنها كلمة رقيقة مهذبة لها وقع فى نفسه دائمًا يساق بالعصا ، دائمًا يتلقى الأوامر ولا يعرف العصيان أو التباطؤ . لكن الست هانم تقول له تفضل ، يا له من حلم رائع ! عشر سنوات يا فار وأنت تعيش فى الجحيم ولم تر وجه امرأة إلا وجه أم خلف السياج السلكى الشبكى بتجاعيده وأساه ، عشر سنوات عشتها بين رجال وصخور سوداء ، وعتاة السجانين والأحداث البشعة والأرق والهوان . آه لو قالت مرة أخرى «تفضل»! وحين يرى الإنسان وجه هذه السيدة ثم يتذكر وجه الشلقامى يخالط قلبه يقين راسخ بأن قتل الشلقامى حلال ! ! لم يكن فارس يعرف كيف يفكر أو يتصرف . كان مأخوذًا مسلوب اللب والإرادة .

وانحنى على الأسلاك يفحصها بعناية ودقة ورائحة مميزة تتسلل إلى خياشيمه الجائعة . رائحة النعيم والحياة ، ومن خلفه تقف عنايات هانم والحارس المدجج بالسلاح وتوقفت يدا فارس عن الحركة حينما سمعها تقول للحارس :

- لماذا تقف هكذا؟

- الأوامر يا ست هانم.

- أية أوامر؟

- هؤلاء الأوباش لا يؤمن لهم جانب، قد يهربون.

لكأن السلاح وحده أو الحراسة المشددة أو الأسوار والأبواب المغلقة هي التي تمنع من الهرب؟! هي مثلاً -عنايات هانم- تعيش بلا حراسة أو أسوار لكنها لا تستطيع الهرب القيود الحقيقية شيء آخر غير كل هذه المظاهر وفي لهجة صارمة آمرة صرخت في الحارس:

- انتظر في الخارج.

- لكن يا ست هانم الـ. .

- قلت: انتظر في الخارج.

أدى التحية وخرج على الرغم منه وبقي فارس والست هانم والخادمة لم يرتح فارس في بداية الأمر. . كونه بلا حارس شيء مزعج لقد تعود الحراسة منذ زمن بعيد لأول مرة يجد نفسه بلا حارسين فارتبك وعادت أصابعه ترتعش، الحرمان جعل الشذوذ قاعدة لديه، ولم يفق من ذهوله وارتباكه إلا على الصوت الموسيقى الحزين الذي يقول:

- خذ. . اشرب هذه.

ونظر وإذ بكوب من الشاى فى يد الخادمة منذ متى لم يتجرع الشاى أهو حلم؟؟

- هذا كثير يا سيدتى!!

ورفع إليها وجهًا نحاسيًا يلمع بقطرات العرق وعينين سوداوين يتجلى فيهما الخضوع والاعتراف بالجميل، ومد ذراعًا مفتولة مرتعشة وتناول الكوب ثم عاد وطأطأ رأسه كالذى يؤدى صلاة.. أولاد الحلال كثير. ما أبشع الفارق بين البك والسيدة حرمه.. كيف تجتمع النار والماء؟ حكمة الله سبحانه.

- لماذا لا تشرب؟

- لا يصح. الاحترام واجب يا ست هانم.

وصمت بضع لحظات.. ثم هتفت:

- آه.. فهمت.. لا تحب الشاى إلا مع شىء آخر.

ثم غابت لحظات وعادت وفى يدها سيجارة وصرخ فارس عندما رأى السيجارة وكأنه يشاهد نذر الموت عن كثب:

- مستحيل..

- لماذا!!

- لأنه ممنوع.. معنى ذلك الجلد..

- لا يراك أحد . .

- الرائحة تشى بالمجرمين . . مجرد الرائحة أكبر دليل . . ألا تعرفين . . ؟

- حماقة ! ! خذ واشعل هذه السيجارة . . وأنا المسؤولة .

تفتح قلبه وانجابت عنه غشاوة الحقد والشك فى كل البشر ، لم تزل الحياة تورق بالخير والحب . لم يمت الأمل . . إن ابتسامة هذه المرأة وعطفها وقلبها الكبير قد مسحا عنه آلام السنين كاد ينسى أن هناك قلوبًا طيبة لكن الفرحة لم تتم جاء البك المدير يتوكأ على عصاه واكفهر وجهه حينما رأى السيجارة وكوب الشاى فى يده وصاح فى جفاف موجهًا الحديث لزوجته :

- أنت لا تفهمين ! الدلال يفسدهم . . أنا أعرف ذلك .

- لكنه واجب الضيافة يا عبد الهادى بك . . إنه مسكين .

- فلم يعرها التفاتًا ثم سدد نظرات قاسية إلى فارس وزمجر :

- يصرح لك بكوب الشاى . . أما السيجارة فلا . . هاتها .

وشحب وجه فارس وغرق فى خجله وعرقه وامتدت يده المرتعشة بالسيجارة ، لكن عنايات هانم اعترضت الطريق ، كانت تبتسم وتنظر إلى زوجها فى رجاء وتقول :

- إنها صدقة . . دعها له من أجلى . . لعل الله يكتب لك الشفاء .

وانبسطت أسارير البك ، لقد أثر فيه رجاؤها وسرته أمنية الشفاء فقال متصنعًا الشدة :

- هذا الولد مشاغب . . لقد اعتدى على الباشسجان ومع ذلك عفوت عنه .

- قلبك كبير يا حبيبى .

- لا أستطيع البقاء هنا . . أشعر بالتعب . . ساعدينى فى العودة إلى سريرى .

تنفس فارس الصعداء وهو يرى المدير يتوارى فى بطء مستندًا على ذراع زوجته الرقيقة ، وأشعل السيجارة ثم جذب نفسًا عميقًا وأتبعه برشفة من كوب الشاى وتنهد : الله . ثم عاد إلى الأسلاك والتوصيلة يفحصها ويحدد معالمها ويختبر الدائرة الكهربائية حتى يصل إلى النقطة التى يكمن فيها العطب ومن آن لآخر يجذب نفسًا من السيجارة فى تلذذ ثم يتبعها بجرعة من الشاى الساخن ، وسمع وقع أقدام خلفه ونظر فإذا بالجندى المدجج بالسلاح يعود وفى عينيه حقد واحتجاج .

- أتأخذ نفسًا من السيجارة .

قالها فارس مازحًا ، وبصوت كالفحيح قال الحارس :

- اخرس يا كلب . .

- الله يسامحك .

وعاد إلى عمله مرة ثانية لقد أوشك على أن ينتهى وخالجه شعور بالراحة والسعادة حينما أمسكت يده بنقطة الخلل ودق قلبه . . لكأنما عثوره على بغيته أصبح تحققًا لأمل كبير . . كبير جدًا وسمع صوتًا خلف ظهره :

- ما الذى أتى بك إلى هنا؟

- أفندم . . أ . . أ . .

- قلت انتظر فى الخارج وسنستدعيك عند اللزوم .

وخرج الحارس يعض على شفتيه من شدة الغيظ ، وابتسم فارس لنفسه ، لم يجرؤ على إظهار ابتسامته فى مواجهة الست الكبيرة ، إنه لعمل شائن أن ينسى أنه سجين وأنها زوجة السيد المدير ، لكن الرائحة المميزة تنبعث إلى خياشيمه وتسكره .

وامتلأ البيت بالنور الباهر فجأة ، وأشرقت روح فارس ، وبان الارتياح على ملامحه ، وبقى مطرقًا فى ذلة ، لكنه كان سعيدًا ، وهتفت عنايات هانم :

- برافو .

- الله يحرسك يا ست هانم .

- شاطر يا . . .

- خدامك فارس.

واستدركت عنايات قائلة:

- لكن قل لى.. لماذا سجنوك.

- طيش الشباب.. آه.. النصيب.

- جريمة كبيرة؟!

- قتل.. كان حلاً شائنًا.. لكنهم قتلوا أبى قبل ذلك.

- لا أتصورك قاتلاً.

- لكنى فعلتها، وحكم علىّ بالسجن خمسة عشر عامًا.. قضيت عشرة.

قالت دون وعى أو تدبر.

- مثلى..

- ماذا يا سيدتى!!

- أعنى أنى متزوجة منذ عشر سنوات..

- لكن سنوات الجحيم غير سنوات النعيم.

- تطلعت إلى الوجه الأسمر -إلى الصخرة التى قاومت عوامل العذاب والفناء والحرمان عشر سنوات؛ إلى شبابه الحبيس الذى ينتصر برغم الأسى.

- أتعتبر نفسك مظلومًا يا فارس؟!

- لا أدرى.. لم أعد أفكر فى ذلك.. إن عمل النهار وأرق الليل والأغلال التى تقيد روحى تنسينى النظر فى مثل هذه القضية.. لقد حكم علىّ وانتهى الأمر- كنت مظلومًا أو بريئًا فى البداية- أما الآن فلا شيء من ذلك اللهم إلا ما جاء عابرًا ولا يلبث أن يذوب مع المشاكل اليومية.

تنهدت ثم التفتت إلى الخادمة وقالت لها:

- أحضرى له رغيفًا ونصف حمامة محشوة ليأخذها معه.

- لكن..

- كفى..

وعاد الحارس المدجج بالسلاح، واختفت الست عنايات.. الظل الحنون.. يا لها من لحظات رائعة..





لم يتطرق النوم إلى جنفيه فى تلك الليلة . . كانت لحظات عامرة تساوى العمر بأكمله ، ولهذا آمن أن الزمن لا يقاس بطلوع الشمس وغروبها ولا بالطول والقصر . . الزمن الحقيقى هو الذى يترقرق نداه هناك فى أعماق نفسه لم يزل يعيش الفترة الخصيبة التى قضاها فى بيت المدير . . لكأنما الزمن توقف عند هذه الفترة ولا شىء بعدها أو قبلها . . السنين العشر المجدبة التى وصمته بالعذاب والقلق تحولت فى هذه الأوقات إلى مجرد ذكرى باهتة . . كل شىء أورق وترعرع . . يبدو أن ما رآه لم يكن حقيقة بل خيالاً محضًا وغمغم فارس :

- لا تنم يا عبد الحميد . . أريد أن أحدثك طويلاً .

- أعرف . . إن مذاق الحمام المحشو لذيذ . . لذيذ . . جدًا .

- لا أقصد ذلك . .

- تقصد أنك كنت على استعداد لأن تدفع عمرك كله مقابل ليلة واحدة معها ! !

- أنت وغد إنها فوق هذه التصورات الحقيرة.

- ألأنها زوجة المدير؟!

- بل لأنها إنسانة.. ملاك أيها الثور.

تنهد عبد الحميد وقال فى حسرة:

- علمتنى زوجتى أن المرأة شيطان جميل!! وأمك نفسها ألم تدفع بك إلى حبل المشنقة لولا لطف الله.

- إنها شىء آخر.

- المرأة تطريك من حيث تريد أن تلعنك!! وحرمانك الطويل يا فارس يشوه فى نظرك الحقائق الأزلية.. لكن قل لى هل دخنت سيجارة بأكلملها؟؟ هذا غريب..

ولما لم يجد فارس استجابة من عبد الحميد جنح إلى المزاح وأخذ يقول:

- أجل سيجارة بأكملها.. تحت سمع وبصر المدير.

- كذبك يجعلنى أشك فى كل ما قلت.

- والحمامة؟؟

أطرق عبد الحميد وهمس:

- أجل.. إنها دليل مادى لا يقبل الشك.

وجاءهما صوت الشيخ سلامة من ركن الزنزانة :

- اللعنة على بنات حواء . . اتفقت معى على قتل زوجها . ثم شهدت ضدى . . أيها المحلفون إنها القاتلة .

يا حضرة القاضى نبيهة بنت حسن عرفات هى التى دبرت الجريمة . لم أقتله هى التى سفحت دمه . أقسم . . أقسم أنها وباء أصفر ، وأنها تضمر الشر للحكومة ، وأنها يهودية بنت يهودى . . !

وقهقه عبد الحميد بأعلى صوته :

- وهل رأيت؟! اتفق المجنون والعاقل على أنك حمار . .

وصاح الشيخ سلامة محتداً :

- مَنْ المجنون؟؟

أجاب عبد الحميد :

- أنا . . أنا يا عم الشيخ سلامة ، أهناك مجنون غيرى؟ لقد خدعتنى اللعوب ، وجعلتنى أطلق زوجتى الأولى دون سبب ظاهر . من يدرى لعل الفاجرة وشت بى بعد ذلك ، بعد أن استنفدت أغراضها منى واستمتعت بأقصى ما نستمتع به امرأة . . أنا المجنون .

وأخذت كلمات عبد الحميد تخفت فى أذنى فارس ، كان فارس يعود ليتذكر ذات الوجه النضر والعينين الجميلتين والشعر المنسدل

تحت ضوء المصباح الغازى المتراقص، وليل أبى زعبل أصبح جميلاً حانيًا، والصخور السوداء لم يعد لها فى خيال ذلك الصدى المرعب المخيف، وملامح الشلقامى الصارمة مجرد صورة جامدة لا حياة فيها ولا توحى برهبة، والسيد المدير -هذا الجلاد الرهيب- كان منذ ساعة رجلاً متهالكًا ضعيفًا يستند على ذراع امرأة.. يا للمهزلة!

وجاء صوت عبد الحميد ساخراً:

- إنك تنسى وضعك يا مولاى..

- أنا فارس..

- وهى عنايات هانم.

- ماذا تريد أن تقول؟

- يجب أن تمرغ أحلامك البلهاء فى الطين.

- قد تكون عنايات هانم ملك زوجها.. لكن أحلامى ملكى.

- ستكون أنت مثل الشيخ سلامة.. أعنى مثلى.. ونصير نحن الثلاثة مجانين. يا للخسارة!! العاقل الوحيد بيننا قد فقد عقله.

آلمت فارس هذه الكلمات، كانت حقيقة مرة صفعت أوهامه، لماذا يبنى هذه القصور الشاهقة فى الهواء وهو لم يرها إلا مرة واحدة، ولن تتكرر..؟ أكيد لن يراها مرة ثانية إلا وهو يجر خطاه المتعبة

عائدًا من الجبل ضمن الطابور المغبر . . وعرف فارس نوعًا جديدًا من الأرق لم يذق مثل طعمه من قبل ، الدنيا فيها أشياء كثيرة يا فارس ، لكنك دائمًا محروم وتجهل أنك محروم ، هذه الدائرة الضيقة المحاطة بالأسلاك والأسوار والسجانين قد حصرت همومك فى أشياء تافهة ، وأغلقت قلبك عن العالم الكبير . وتخيل فارس نفسه يبصق على وجه الشلقامى ويركله بحذائه اللامع ، وتخيل نفسه أولاً وأخيرًا زوجًا لعنايات هانم . . آه . . الجنون فنون يا فارس . . هذه الحورية لم تخلق لصعلوك مثلك ، إنها بنت ناس تعيش على الحب والدلال والنعيم والحرير ، وأنت . . مجرد قلب حاقد يفكر فى الثأر من قاتل أبيه . . وعبد الحميد هو الآخر صعلوك يبيع السموم ، ويتزوج ويطلق ويلعب بالفلوس ، ويدخل السجن ، ويتعذب تحت وطأة الغدر والخيانة الزوجية ، والشيخ سلامة شيخ مخرف مجنون أو نصف مجنون وإلا لما قتل أخاه ، ويظل يهذى باسم المرأة الغامضة ، ووجد فارس نفسه يقول دون مقدمات مسموعة :

- أنتم صعاليك . .

فرفع عبد الحميد رأسه وغمغم :

- متشكر . . من أصلك . .

وصاح الشيخ سلامة :

- نحن أسيادك يا وقح . .

ولم يعرهم فارس أدنى التفات، لقد تبين له أن كل واحد منهم تمثال مجسم لمأساة، الشيخ سلامة، عبد الحميد، الشلقامى، باقى السجناء والمسجونين، كلهم يعبرون عن مآسى حالكة السواد، مستحيل أن تكون الحياة هكذا دائمًا، لا يستطيع أن ينسى أنها قدمت له كوبًا من الشاى وسيجارة ونصف حمامة، معنى ذلك أن الدنيا بخير، وأن السجن وحده هو المأساة الكبرى التى تنعكس ظلالها على كل بائس يدخله، وهَمْهَمَ:

- ما أبشع السجن!!

قال عبد الحميد:

- ألم تعرف ذلك من قبل؟!

- على هذه الصورة؟؟ لا . .

- حتى عندما صفع الشلقامى؟؟

- ربما الآن فقط . .

تنهد عبد الحميد وحك قفاه وهو يقول:

- العالم خارج الأسوار سجن كبير. لكننا هنا نعتبر مركز ممتلئ . .

- لست معك . .

تمدد عبد الحميد فوق بُرْشه وتثاءب. ثم قال:

- كفى . . آن أن ننام. الفجر على الأبواب. ذكرى الصخور السوداء، تعذبنى.

تسرب الخدر إلى الأجساد المنهمكة، وارتخت الجفون تحت الظلام، وذابت أشباح الظلام، وعندما أغمض فارس عينيه، كان يبتسم، أما عبد الحميد فقد انبعث غطيطه رتيبًا عاليًا، وبقى الشيخ سلامة مفتوح العينين. يمصمص بشفتيه، ويتمتم لنفسه، وكان مجرد التفكير فى إلقاء نظرة على وجهه يبدو مرعبًا للغاية، متى وكيف ينام، لا أحد يعرف.





شعـرت عنايات هانم وهى تخطو فى ميدان المحطة أن قيوداً مرهقة قد انحلت عن ساقها، حاول زوجها عبد الهادى بك أن يستدعى «تاكسى» لكنها اعترضت وأصرت على أن يتجولا على الأقدام بضع دقائق، كانت تمضى كالغزال الرشيق فى مرح وتتشرب كل ما يقع عليه بصرها فى عشق بالغ، يوحى إليها بأعذب الأحلام، ظمأ روحها إلى الحياة والحركة والاستمتاع يحيلها إلى شعلة متقدة، وقصدت بائع المثلجات رغم ممانعة زوجها، وجرعت زجاجة من الكوكاكولا، ومالت إلى بائع الصحف واشترت مجلات مصورة وصحفًا ورواية اسمها «الزنبقة السوداء» كان عبد الهادي بك يحاول أن يلحق بها؛ لكنه متعب، وأنفاسه لاهثة، وتندى جبينه بالعرق، وعندما ظهرت على وجهه علامات التأفق والضيق هتفت :

- الدنيا جميلة .

- هراء.

- لماذا؟؟

- كيف تكون جميلة وفيها الأمراض والموت والألم؟؟ ورفض الاستمرار فى المشى، واستدعى «تاكسى»، وأركبها على الرغم منها، وسارت العربة وشمس الصباح المنعشة تخترق اللوح الزجاجى، وخالجها مرة أخرى شعور الحبيس فى حيز ضيق، لكنها تذكرت أن زوجها معها، لقد انبسطت أساريره حينما ألقى بجسده على المقعد الخلفى، فأخذ يجفف عرقه، وتذكرت ليلة الزفاف، كانا معًا فى عربة مثل هذه العربة، لقد أمسك بيدها. وضغط عليها آنذاك.. وابتسم.. لم يكف عن مداعبتها حتى فى السينما التى كانت مكتظة بالناس.. ما أبعد الأمس عن اليوم.. لكنها زحفت بيدها نحوه وأمسكت يده، لكنها اليوم باردة كالثلج، لم تلمح فى عينيه أدنى انفعال، لم يستجب لضغطها أو معابثها.. لكن ذكرى يوم الزفاف تلح عليها، وهى بدورها تريد أن تمثل المشهد نفسه وغمغمت حتى لا يسمع السائق:

- اقترب منى.

وقرأ عبد الهادى بك فى عينيها معنى كثيرة، وهمس:

- لا داعى..

- قلت: اقترب منى وإلا خاصمتك.

- الصداع يكاد يحطم رأسى.

- امسك يدى وستشفى..

سدد إليها نظرة عتاب:

- لم تعودى صغيرة..

واصطدمت بتجاعيد وجهه، والشعرات البيضاء التى تتناثر فى رأسه، والتبرم الذى يتبدى على ملامحه، فأغمضت عينيها وحاولت أن تتجاهل الحقيقة المرة، وهمست:

- ضمنى إليك..

- نحن فى الطريق العام يا مجنونة..

- لماذا أحضرتنى إلى القاهرة إذن؟

- لعمل رسم قلب.. وتحليل الدم.

فقالت:

- ولنقضى فترة جميلة كعريس وعروسة..

- بعد ما شاب..

- إنك تؤلمنى..

تطلع إلى الوجه الذى يفيض بالنضارة والنشوة، وصرخت فى وجهه نداءات الشباب الغض التى تنطلق من خديها المتوردين، وتذكر على الفور السياسة التى كان قد رسمها على أثر الأزمة التى كادت تحطم عشه منذ أيام قليلة، إنه متعب.. متضايق.. مريض.. لكن إذا حصر اهتمامه فى مرضه، وحصرت اهتمامها فى أنوثتها الغائرة، لحدثت فجوة كبيرة بينها تهدد بكارثة، فلماذا لا تضيق هذه الفجوة، ويلتقى معها؟

واقترب منها بعد أن رسم على ثغره ابتسامة، وأحاط خصرها بذراعه ومال عليها هامسًا فى أذنها: «أحبك» واستسلمت عنايات لنبراته المبحوحة الوالهة، وتذكرت الثوب الأبيض وتاج العروس ليلة الزفاف فاتسعت ابتسامتها، ثم ألقت برأسها على صدره وهمست «قبلنى» وشعر بالحرج، لكن نداء شفتيها كان أقوى من أى اعتبار آخر، يا لها من عنيدة تصر دائمًا على إتيان الشغب الخطر فى وقت لا يناسب، وتحت حالة نفسية قلقة!! لو رفض لكان هذا إيذاء لشعورها، وصدمة غير معروفة النتيجة لعواطفها.. أجل.. عواطفها المتقلبة فى هذه الأيام.. ماذا لو قبلها لن يكلفه ذلك كثيرًا. ومال برأسه وطبع على شفتيها قبلة مرتعشة نادرة، لكنها فى شبه غيبوبة، ولا بد من إطفاء ولعها، كانت سكرى بحلم جميل.. لعلها كانت تحلم بأشياء أخرى.. أو برجل آخر صوّره لها وهمها. لكن صوت السائق جاءهما:

- لعل المكان هنا .

ونظر عبد الهادى بك إلى بعيد ، باحثًا عن المعالم والعمارات القريبة .

- ليس هنا .

وسارت العربة بسرعة أكثر ، وبدا من حركات السائق أنه يعانى بعض الضيق والقلق ، ومن آن لآخر ، ينظر إلى المرآة أمامه والتى تعكس كل ما يدور خلفه ، وتنهدت عنايات وعلى ثغرها رفت ابتسامة نشوى وهمست : «جميل» .

ونسيت عنايات هانم نفسها فى الجو الجديد ، حيث يوجد أبوها وأخواتها وأشقاؤها وأقاربها ، وحظيت بالذهاب إلى دارين للسينما ، واستمتعت بالنزهة على شاطئ النيل ، ولم يرافقها عبد الهادى بك فى أغلب هذه الجولات إما لصحته أو لارتباطه بموعد مع الطبيب ، وفى خضم هذه الألوان الجديدة من الحياة أشرقت نفسها بشىء من الرضا ، وخفت حدة نقمتها على زوجها وأسلوبه فى حياته الخاصة والعامة ، وكثيراً ما كانت تتردد على القاهرة وتستمتع بمثل تلك المباهج العادية ، لكن إحساسها هذه المرة يختلف تمام الاختلاف ، إنها اليوم تتذوق كل شىء وتتشربه بأعصابها وروحها وتمارسه حتى النهاية ، لكأنما تريد أن تؤكد لنفسها أنها ليست محرومة ، وأنها تملك كل شىء ولا ظل للحرمان فى

حياتها. لكنها عندما حانت ساعة السفر تطلعت إلى صغرى شقيقاتها مع خطيبها «المحاسب». . كانا صغيرين، يورد الخجل جبينهما، ويبدو فى نظراتهما شوق مكتوم وحرارة مشعة، ويتناجيان دون صوت، نظراتهما تحمل ألف معنى، غائبان عن كل ما حولهما إلا بجسديهما وعبارات موجزة يحاولان بها أن يوهما المشاهدين أنهما معهم. . ومع ذلك فقد استبشر عبد الهادى بك خيراً بالسعادة الظاهرة التى يطفح بها وجه زوجته وتتأكد له أن خطته كانت سليمة، فابتسم فى خبث، ثم لامس شاربه فى شىء من الثقة الموهومة، وتخيل نفسه فى ساحة السجن بردائه الرسمى والتاج والنجوم والصمت الرهيب، ورؤوس المسجونين المنكسة، وأوامره الصارمة، وعقابه الرادع، وصوته الأجش المدوى ثم قال موجهًا الكلام لعنايات:

- آن أن نسافر. . العطلة انتهت والعمل ينتظرنى.

- وأنا؟؟

- معى بالطبع. .

وأفاق من خيالات الكبرياء على صوت قاس:

- لن أسافر. .

- كيف؟؟

- أنا أريد ذلك . .

- وأنا . . زوجك . أريدك معى . .

- لا أستطيع الآن . . دعنى واذهب أنت ، وسألحق بك بعد يومين . سدد إليها نظرات زاجرة تحمل معنى الإصرار والوعيد :

- هذا عبث . . تتركين زوجك المريض صاحب المسؤوليات لمجرد اللهو والنزوات الفارغة . . هزت كتفيها فى غير اكتراث :

- رافقتك السلامة . . لكن لى الحق فى عطلة يومين . .

اقترب منها وجذبها من ذراعها وهتف :

- لا يستطيع أحد أن يعصى أوامرى . .

فقاومته ، وقالت وهى تخلص نفسها من قبضته القاسية :

- الأمر لا يحتاج لمثل هذا التعنت . .

- الرأى رأيى أنا . . التدليل أفسدك . .

ومرة ثانية صرخت :

- أنت وحش . . !

وزمجر كحيوان جريح ، أينفجر فيها؟؟ أيطبق على عنقها ولا يدعها إلا جثة هامدة؟؟ أيصوب إليها مسدسه ويصرعها ويستريح؟؟ ولكن . . لا . . إن طائره الجميل حبيب إلى قلبه ،

وللنساء نزوات وهو صاحب حيل لا تنفد، وعيب كبير أن ينهار أو يعجز أمام رغبات طائشة لامرأة مدللة لم يُجد عليها القدر بطفل بعد.. وأخيراً ابتسم فى برود:

- الله يسامحك يا عنايات..

قالت وقد أخذت دموعها تنهمر:

- هل كتب على أن أتبعك كظلك؟؟ إنى أشعر أحيانًا بالرغبة فى الانفراد بنفسى. أريد أن أتصرف كما يحلو لى بعض الوقت.. لماذا أجدك صلبًا تأبى إلا أن تضع سداً يواجه إرادتى كإنسانة.. أشعرنى بحريتى وآدميتى ولو ليومين.. أرجوك. أرجوك.!

نغمة غريبة لم يألفها سمعه، ومعارضة صريحة لإرادته الحديدية التى طبعت على الصرامة وعدم المعارضة، ومنطق قاس أشد قسوة من الداء الذى يهد من قواه، ماذا جرى؟! كانت هادئة صامتة مطيعة خجولة، لا بد وأن الشيطان قد لبس جسدها.. أم أن هناك حقائق دامية تجرى فى الخفاء، ولا أعرف عنها شيئًا.

واحتدت المناقشة، وانسابت شهقاتها ودموعها وعباراتها النابية، وأقبل عليها كل من بالبيت، وقالت أمها فى قلق:

- ماذا جرى يا عبد الهادى؟!

قال متوتراً:

- سليها؟!

وقَدِمَ أبوها قائلاً:

- ما الذى يضايقك؟؟

- كل شىء يا أبى..

- كونى عاقلة..

- هذه هى الحقيقة..

كاد عبد الهادى بك أن يفقد عقله وهو يستمع إلى كلماتها الأليمة، لكنه تماسك وقال:

- سلوها ماذا ينقصها؟؟ المال؟ المركز؟ الراحة؟ البذخ؟ المكان؟ أقسم إنه لشىء محير مريب.

قال أبوها وقد اقتنع بمنطق عبد الهادى:

- هذا كلام رجل عاقل.. أنت مجنونة مثل أمك تمامًا.

وقالت أمها محتدة:

- يا ناس ارحموا.. حرام عليكم.. لماذا لا يتركها مع أمها يومين؟ هل ستنتهى الدنيا وتخرب مالطة؟ ابنتى وأنا أعرفها.. دعوها وسأعرف كيف أدبر الأمر، وأريح ضميرها..

وأردف أبوها:

- لكنك يا ابنتى لم تعودى صغيرة إنك سيدة بيت محترمة . .

- وضج الجميع بالضحك حينما قالت :

- لم أزل صغيرة!

ورأى الجميع فى النهاية أن أسلم حل هو تركها يومين، إلا عبد الهادى فقد رأى فى ذلك افتراء على حقوقه كزوج وقور. . كما رأى فيه تدليلاً لامرأة عابثة لا تفكر فى مسؤوليتها كزوجة رجل مريض، ورأى فى هذا التصرف أيضًا خروجًا على مألوف عادته، وانهزامًا صريحًا لإرادته الحديدية التى لم تقهر من قبل، ولهذا أطبق فمه وآثر الصمت حتى ارتدى ملابسه وأعد حقيبته، ثم توسط الأسرة المتجمعة، وقال فى جفاف وألم :

- هذا ما لا أقركم عليه مهما قلتم. . لسوف أذهب وحدى . . لست عاجزًا. ثم وجه إليها حديثه :

- تستطيعين أن تبقى كما يحلو لك . . إنه شىء مشين. .

لم تشعر وحدها بالإهانة التى وجهها إليها بين ثنايا عبارته الأخيرة، لكن أباها وأمها وجدا فى قوله ما يعبر عن القلق وقلة الذوق واتساع شقة الخلاف، لكنهما آثرا الصمت حتى خرج عبد الهادى . .

لم تكن الأمور بحاجة إلى مثل هذا التعقيد والتأزم لو خفف عبد الهادى من تشدده، أو تحملت عنايات بعض المتاعب، سواء انتهى

الموضوع بتحقيق رغبته أو رغبتها فهو لا يخرج عن كونه حادثًا تافهًا سـرعـان مـا يذوب وتنمـحى آثاره تحت وهج شـمس أغـسطس الحارقة، وترهلات الصيف وضيقه، والمسامح كريم. .

كان عبدالهادى فى طريقه إلى أبى زعبل ينفخ فى غيظ، ويدخن سيـجارة فى شراهة برغم تشديد الطبيب عليه بعدم التدخين، ويتجول بنظراته الزائغة هنا وهناك دون أن يرى حقيقة ما أمامه. . كان يظن نفسه قادرًا على كل شىء ويقى وهمه. . أين صحته؟؟ أين سعادته؟ أين زوجته؟! لم يزل المدير صاحب الشأن، وفى جيبه أوراق مالية، والسجن مملكته الصغيرة- يستطيع أن يحكمها بأى أسلوب، وأن يشير فتلبى إشارته، ومع كل هذا فهو يشعر أنه أتعس أهل الأرض قاطبة. . لعل هؤلاء المسجونين الذين تذوب قواهم فى وقدة الجبل الأسود، أو ينطفئ شبابهم فى ظلام الزنازين، لعلهم أسعد منه حالاً. ووثبت صورة عنايات إلى خياله كالوردة الندية ذات الشوك والأريج فأخذ قلبه يدق، لشد ما يحب هذه الخبيثة التى تملأ عليه حياته، وتنسيه هموم الأيام والليالى. . وشعر أنه قد قسا عليها، حينما أظهر عدم اكتراثه بتركها. . لعنة الله على الغضب الذى ساقه إلى مثل هذا التصرف الأحمق. .

وحينما بلغ بيته تطلع إلى المبنى الأنيق فى حسرة، كانت كآبة مُرة تظلله، وبدا له كقصر مهجور تعلوه آثار القدم والخراب، لم

يعد يرى الورود النضرة فيه، ولم يلتفت إلى الزروع الخضراء التى تحيط به من كل جانب، حتى الخادمة الواقفة فى ذلة خلف الباب لم تقع عيناه عليها إلا عندما دلف إلى الداخل..

وراعه الصمت والجمود اللذان يلفعان كل شىء، إبر «التريكو» والخيوط الصوفية الملونة ملقاة فى مكانها دون أنامل حنونة تلعب بها، باقة الورد على منضدة الطعام قد ذبلت ومات عبيرها، حتى سرير النوم بدا له كنهش كبير مفروش بالأكفان، وقميص نومه على المشجب ينساب على الحائط كدمعة الذكرى الحزينة.. صورة الزفاف قرب السقف تطل عليه لتزيد من شجوه وعذابه.. الجو من حوله مشحون بآلاف الانفعالات الصاخبة العاصفة، وهو واقف يترنح كغصن وحيد ضعيف تحت رحمة الرياح الطاغية.. والنوافذ مغلقة تصطدم مع نظراته الزائغة. وعتمة خفيفة تغلف المكان.. كل شىء ينضح بالأسى والأحزان واليأس وفوق منضدة صغيرة كان صندوق حقن «البراندرين» ملقيًا فى جمود، وأصر عبد الهادى بك على سنانه فى غيظ. ثم اقترب من الحقن، وانتزعها من مكانها، وداسها بحذائه فى غلظة ثم اختلطت قطع الزجاج الرقيقة المهمشة بالسائل الهرمونى الذى ينشط الضعف الجنسى.. ثم تطلع إلى قميص نومها، واندفع إليه دون وعى، ودفن وجهه فيه، ثم ترك العنان لدموعه. ومن بين دموعه كان يتمتم: لماذا تفعلين ذلك يا

عنايات؟؟ إنك تقتلينني . . ألا تعرفين أنك كل شيء في حياتي؟ لم أكن أشعر بالمرض وأنت إلى جواري. لم أتعذب بالقلق إلا عندما رأيت في عينيك نذر التمرد والنفور . . يومًا ما كان المسجونون يطلقون على «وحش السجون المصرية». وكان هذا اللقب آنذاك يطربني ويغذي كبريائي وشبابي بالغرور . . كنت عنيفًا أبث الرعب في النفوس، وكان قلبي يفيض بالسعادة وأنا أرمق المذعورين والمرتجفين. لكن كلمة «وحش» التي انطلقت بها شفتاك اليوم انصبت في قلبي كالنار . . ملأت نفسي بالرعب الذي ملأت به قلوب الآلاف الذين عرفتهم من المسجونين . .

أفاق عبد الهادي إلى نفسه، وسرعان ما جفف دموعه، وتطلع إلى العالم . . إلى الخراب من حوله فلم يطق البقاء؛ فأسرع إلى السجن لعله يجد خلف أسواره ما يشغله عن همومه وجراحه . .





الجبل يلتهب بالقيظ ، والثغور اليابسة تحلم بالماء البارد وكأنه أشهى ما فى الوجود ، والأردية الزرقاء متناثرة على السفح لا تشع غير اليأس والملل وتمتم فارس فى يأس :

- لماذا خلق الله هذا الجبل ؟ ؟

ورد عبد الحميد فى سخرية :

- ليفنى فيه الحمقى من أمثالنا .

- ولماذا خلق المدير . . ؟

وقهقه عبد الحميد :

- لأنه عندما خلق الكرباج كان لا بد أن يوجد من يهوى به على الظهور . .

وصمت برهه ثم استطرد : أنت غبى . . تسأل دائمًا عن أشياء أزلية لا حيلة لنا فى تغييرها . .

قال فارس شاردًا :

- لكن هذه الانحرافات تشغل بالى . .

- لو لم تكن قاتلاً لاعتبرتك وليًا من أولياء الله .

وفى هذا اليوم بالذات ضاق المسجونون ذرعًا بالشلقامى لقد بدأ يومه بالسباب والشتائم المقذعة ، ثم أتبع ذلك بصفعاته الشرسة على الوجوه والأقفية ، حتى قدماه قد تعبتا من كثرة ما ركل بحذائه ، وعلى سفح الجبل الأسود لم يكف عن إلهاب الظهور بخيزرانته ، وتساءلوا جميعًا : لماذا لم يحكم الله على الشلقامى بالمرض . . بالموت؟ هذا الشيطان لا يفكر مطلقًا فى أخذ يوم عطلة ، لا يعرف الراحة ولا المرض ، السجن هو عالمه الوحيد الذي يؤكد فيه ذاته ، ما أشبهه بسيادة المدير ! ! وكان أبشع ما فعله الشلقامى فى ذلك اليوم هو اعتداؤه على رجل واهى القوى يزحف نحو الخمسين ، لقد صفعه فوقع السجين على الأرض ، وعندما انتصب على قدميه أعطاه لكمة فى فكه الأسفل فسقط للمرة الثانية ، ونظر إليه السجين بعين دامعة وقال :

- حرام عليك . .

- اخرس يا كلب . .

- أنا مثل والدك . .

فأخذ الشلقامى يركله فى جنون وكأنه قد استعذب ضراعته :

- يا بنى . . فى عرضك . . أليس فى قلبك رحمة؟؟

وتوقفت الحركة من حول السجين المضطهد ، رشقته العيون الحزينة من كل جانب ، وأمسكت الأيدى بالمعاول فى جمود ، كل واحد كان يحلم بأن ينقض على شلقامى بمعوله ويحطم جمجمته ويطحن جسده ، وتطلع الشلقامى إلى الجمع الواجم الذاهل ، لو رماه كل واحد منهم بحصوتين لخر صريعًا ، وداخله رعب ، أيفر؟! سيكون هذا بداية النهاية له ولسلطانه؟؟ يستنجد برفاقه ورؤسائه من الضباط؟؟ لكنه أدرك بسرعة أن أسلم وسيلة للخروج من المأزق هو التمادى فى القسوة ، ومن ثم انحنى على السجين وجذبه حتى وقف ، وصرخ فيه :

- اشتغل . . أنت الذى جلبت الأذى لنفسك .

ثم صرخ فى المسجونين :

- ماذا تنتظرون؟؟ كلٌ إلى عمله وإلا . .

وعادت المعاول الحديدية ترتطم بالصخر الصلب ومن خلال ارتطامها تنطلق شرارات واهنة سرعان ما تموت ، لم يكن أحد منهم يعرف الشلقامى قبل مصير السجن ، وعندما رأوه حسبوا أنه قد خلق على نمط آخر مغاير تمامًا لنمط البشر ، إنهم يشكون لهذا

الرجل أطفال يداعبهم ويمرحون على كتفيه وحجره؟ أيستطيع أن يعيش مع امرأة ويحتويها بين ذراعيه؟؟ مستحيل . . مستحيل إلا أن تكون سفاحة مثله أو أقسى منه .

كان فارس يعمل، لكنه كان يفكر فى أمر غريب، لو علموا إخوانه لفغروا أفواههم من الدهشة، ولرموه بالحمق والجنون، كان يفكر فى عنايات هانم وكوب الشاى والسيجارة الكاملة، والحمامة المحشوة . . وكان يستروح مع هذه الذكريات أنفاسًا حلوة كالسحر، تجعله ينسى إلى حين حرارة الجو، ومنغصات الشلقامى . . وصحا من هواجسه على صوت غليظ يعرفه :

- فارس . .

- مَنْ؟؟ عبد الراضى . . كيف الأحوال؟؟ لكن يبدو على وجهك الغضب الشديد . .

ودقق عبد الراضى فيه النظر وقال :

- يجب أن نكون رجالاً . .

تطلع فارس إلى شاربه الكث الفاحم، وإلى حواجبه الغزيرة، ونتوء خديه واتساع جبهته وأنفه الكبير، وشفتيه المزمومتين فى عنف وهمس :

- بالطبع . . نحن رجال . .

وببساطة مذهلة قال عبد الراضى :

- حسنًا . . يجب أن نقتل الشلقامى . .

تسمر فارس فى مكانه ؛ وعصف ثائر امتلك رأسه ، وحملق فى دهشة :

- نقتله؟!

- أجل . . نسحقه كحشرة . . جرائمنا مجتمعة لا تضارع جرائمه المستمرة . . إنه يسخر ويدوس على أعز ما يملكه إنسان . .

قال فارس فى رعب .

- والنتيجة؟؟

- لا تهمنى النتيجة .

- لكن . .

- لكن ماذا؟ هل جننت؟؟

لو تحققت الأمانى فلسوف يفرج عن فارس بعد قضاء ثلاثة أرباع المدة أى بعد سنة واحدة وثلاثة شهور ، هذا إذا كان حسن السير والسلوك ، نظيف الصفحة ، مطيعًا لهيئة السجن ، إن السنوات العشر التى مرت كانت ليلاً طويلاً ، وهو ينتظر انبلاج الفجر بعد سنة وشهور قليلة ، وبعدها يعود إلى قريته وأمه وامرأة

يتزوجها . . وحقول خضراء وحياة حلوة شهية حرمته الأقدار منها . . فهل يقتل مرة أخرى؟ إن قتل الشلقامى معناه كارثة . . قد يكون الشنق هو المصير . . أو على الأقل السجن المؤبد .

من أجل ماذا؟ لأن الشلقامى الوضيع قد افترى، ووجد فارس نفسه يقول :

- إنه عمل رهيب . .

- لست فارس الذى أعرفه . .

- معنى ذلك أن نموت سجنًا .

- وكرامتنا كمسجونين يا فارس؟

وفى نبرات ضارعة قال فارس :

- دع الأمر لله يا عبد الراضى .

- نحن يد الله التى تبطش بالأقدار .

- لا أستطيع . . لا أستطيع . .

ورنت على قفا فارس صفعة قوية ارتجف لها كيانه، وحدث لعبد الراضى ما حدث لفارس، ونظرا . . كان الشلقامى يقول :

- لا يحلو السمر إلا أثناء العمل يا أولاد الكلب . .

ودارت الأرض بفارس، لم يعد يرى شيئًا أمامه، ولم يعد يسمع ما يتردد على لسان الشلقامى من فاحش القول، دائمًا الشلقامى يضرب على قفاه، دائمًا يرده إلى الحقيقة المرة وهى أنه سجين.. سجين مهان لا أكثر وتردد فى رأسه أصداء العبارة التى نطق بها عبد الراضى منذ لحظات: «تحت يد الله التى تبطش بالأقدار» ونسى المدة القصيرة الباقية له كى يخرج من السجن، ونسى ليل العذاب الأسود الذى امتد عشر سنوات كاملة وقرر أن ينتقم فى جنون، وعندما انجابت الغشاوة عن عينيه وثاب إلى رشده، وأمسك بمعوله كى ينتقم.. عاد فتوقف أمام منظر بشع.

كان الشلقامى ملقيًا على الأرض تنزف رأسه دمًا أحمر، وكان عبد الراضى كالمجنون، وأسرع المسجونون- لا السجانون- وقبضوا على عبد الراضى وانتزعوا منه المعول. والشلقامى رأسه ينزف بغزارة وجسده ينتفض وكأنه يعانى سكرات الموت، كان عاجزًا جريحًا لا يقدر على شىء، ووجهه شاحب مذعور، وبدا تحت نظرات الجميع مسكينًا.. وبدا ضحية تستحق الرثاء..

كان عبد الراضى يصرخ كالثور الذبيح، ويحاول جاهدًا أن يستخلص ذراعيه وقبضتيه من الذين تجمهروا عليه وأمسكوا به، وعندما سكنت حركاته، وساد الصمت، تقدم ضابط يتبعه عساكر

الجبل؛ وقيدوا رجليه ويديه؛ وساقوه تحت وابل الضربات إلى السجن، واستدعيت على الفور عربة الإسعاف لنقل الشلقامى، وأطلقت فى الهواء رصاصات طائشة لمجرد الإرهاب، وسيق الرجال فى هرولة إلى زنزانتهم. . ودقت أجراس التليفونات، وأعلنت الطوارئ، واستدعى المدير قوات شرطة إضافية. وأخطرت مصلحة السجون الوزير المسؤول. وتمتم عبد الراضى وسط مظاهرة التحقيق الصاخبة:

- لِمَ كل هذا؟ أنا الذى ضربته. . أعنى رددت على العدوان المتكرر. . حاولت أن أنتقم لكبريائى عندما داس السيد المدير على كل شكاوانا. . إنى أعترف. . لكنه كان مجرد دفاع عن النفس. .

كانت حالة المصاب خطيرة، وكان رعب المسجونين قاتلاً وبقى فارس- الشاهد الأول- فى حالة ذهول، وكأنه قد فقد النطق إلى الأبد، وكان السيد المدير محتقن الوجه تظلله سحابة قاتمة من الحزن والضيق. . وأيقن - أكثر من أى وقت مضى- أن القسوة هي العلاج الوحيد لمن يسميهم المنحرفين والمجرمين. . لم يخطر على باله قط أن اللين قد يؤدى إلى نتيجة إيجابية مأمونة. . حتى رقته مع زوجته دفعتها إلى التمرد والمروق. . الناس فى رأيه مجموعة من الحيوانات لا تسير إلا والسياط معلقة على رقابها. .

وفى الليل حيث أبواب الزنزانات مغلقة، والظلام يلقى ظلاله السوداء على كل شيء، كان الهمس يدور، وقد اقتربت الشفاه والآذان:

- عبد الراضى ولد.. راضع من أمه صحيح.

- عبد الراضى.. سيظل أسطورة تروى في كل السجون.

عبد الراضى.. قتل الشلقامى.

- عبد الراضى.. بطل.

- لكن أصواتًا أخرى تهمس فى ذلة:

- يموت الكلب يأتى كلب غيره كثيرون مثل شلقامى.

- عبد الراضى مجنون.. أيتصدى لقوة الحكومة وسلاحها؟

- ضاع عبد الراضى فى شربة ماء.

- ما لنا ولهذه الكوارث!!!

وعبد الراضى جالس فى زنزانته، يعيش على أرق العذاب ولحظات التفكير الرهيب على حافة الأنظار الدامى، ومن آن لآخر يعض على شفتيه ويحاول جاهدًا أن يخلص يديه من الغل الحديدى الذى غلل يديه خلف ظهره، ولا شيء معه غير الصمت والذكريات والجبل الأسود وصنبور الدم الذى تدفق من رأس

الشلقامى، وجاءه صوت أحد السجانين من خلف الباب المغلق يقول فى شماته:

– لم يمت الشلقامى.. إن العملية الجراحية التى أجروها له خطيرة.

لكنه سينجو.. وسنعرف كيف نؤدبك يا وغد..

لم يرد عليه عبد الراضى، آثر الصمت وإن ترددت فى أعماقه هذه الكلمات:

– لم يمت؟ الحمد لله..

●●●

كان فارس جالسًا فى زنزانته يجتر الحادثة، ويفكر فى المصير المتخيل الذى كان سيؤول إليه لو سبق عبد الراضى إلى الجريمة، وكان عبد الحميد يتناول بضع لقيمات جافة دون إدام، والشيخ سلامة يرغى:

– المسؤول الأول عن هذه الجريمة ليس عبد الراضى.. لكنها نبيهة بنت حسن عرفات.. إنها وباء أصفر.. ألم أقل لكم إنها تأتى إلى هنا وتحمل معها الكوارث.. يهودية بنت يهودى.. آه لو سمعوا كلامى لقد أخبرت المدير بخطاب رسمى منذ أسبوع، وشرحت له الخطورة الكامنة وراء نبيهة بنت حسن عرفات.. لكنه

للأسف ضحك منى . . وضحك الشلقامى هو الآخر عندما رأى المدير يضحك . . كانوا يضحكون. وها هم الآن يبكون ويعضون بنان الندم. ألم أقل لكم؟ يهودية بنت يهودى هى الشيطان فى ثوب امرأة .

قال عبد الحميد وهو يجرع بعض الماء :

- اعقل يا شيخ سلامة .

- المجانين أنتم .

وهز رأسه فى أسف .

- لا أحد يدرى .

وناموا لكن فارس ظل مفتوح العينين يحملق فى الظلام الكثيف .





بقيت عنايات فى القاهرة بعد أن رحل زوجها، وفى اللحظات الأولى خالجها شعور دافق بالإرتياح، لقد استطاعت أن تملى إرادتها، وتنفذ رغبتها فى البقاء، وقهرت عنفوان زوجها وجبروته، وتعمق إحساسها بالحرية الذاتية، من حقها أن تأكل ما تشاء، وأن تفتح ذراعيها فى حنان لتستقبل رجلها أو تكور قبضتها وتلوح بها مهددة. لها أن تختار الطريق الذى يوائم مزاجها المرهف ونفسها القلقة. وذكرت رحيله التعس عنها، كان يدب على الأرض فى عصبية، وكانت هى تنظر إليه آنذاك دون اكتراث. . لقد ظل طويلاً يستحوذ على كل السلطات المشروعة وغير المشروعة فى يده، لم يكن لها أية سلطة حقيقية هى لا تنكر أنه كان يغدق عليها حبه، ويعاملها فى رقة ورفق، ولا يتوانى عن تقديم الهدايا. لكنها كانت كطائر حبيس فى قفص من ذهب، تمتد إليه يد رحيمة تنثر الحب فى سخاء، والطائر الحبيس لا يرى إلا القفص والعالم الضيق الذى يحدد أفقه، ويوقف من انطلاقه.

ولم يخف على عنايات ذلك الحرج الذى أوقعته بأسرتها، أبوها لم يكن راضيًا تمام الرضا عن تمردها وشقها عصا الطاعة على إرادة زوجها، إن أباها لا يرجو سوى السلام العائلى ومعالجة الأمور برفق، وأمها فى بادئ الأمر -مالت بعواطفها نحو ابنتها، لكنها بعد فترة ساورها الشك أن ابنتها لزوجها أولاً وأخيرًا، ومن الواجب أن تستجيب لرغباته، والشىء الذى بعث الدهشة فى أفق الجو العائلى هو أن الموضوع فى ظاهره بسيط جدًا لا يحتاج لمثل هذا التعقيد، لكن الأب أيقن أن وراء الظاهر خلافات أخرى مختبئة، ولهذا عاد فى اليوم التالى إلى ابنته، وجلس إلى جوارها باسمًا، وأخذ يلاطفها ويحدثها عن ذكرياته أيام كان موظفًا بارزًا فى ديوان وزارة المعارف بالمخازن، قبل أن يحال على المعاش، ولاحظ أثناء الحديث أنها شاردة، تحاول أن تشاركه الابتسام والمرح دون حماس، فلم يجد الرجل مناصًا من أن يقول:

- كونى صريحة.. ما الذى يضايقك؟

- تنهدت وهمست:

- كل شىء يا بابا.

- ما الذى يضايقك على وجه التحديد؟

- لا أدرى.. لكن.. آه.. ماذا أقول؟ دع هذا الأمر.

- كلا يا ابنتى . . إن معرفة مصدر التعب يساعد على علاجه .

وتذكرت عنايات أن هناك بعض الأمراض التى لا تشفى إلا بالاستئصال ، أو بتر العضو الفاسد كلية ، وأنه لا تغنى عن ذلك العقاقير والمخدرات الوقتية والمحاولات الشوهاء .

- الحقيقة الأكيدة يا أبى هى أنى تعسة .

- لنبحث معًا عن السبب . . أهو العقم؟ إنه إرادة الله يا ابنتى ، ومن يدرى؟ قد يكون مكتوبًا لك فى ضمير المستقبل نصف دستة من الأولاد ، ويومذاك سيكون سبب تعاستك عبث الأطفال وشغبهم .

وقهقه ، لكنها بقيت بقيت صامتة تحوم على وجهها سحابة من الحزن .

فاستطرد الأب :

- المال والبنون زينة الحياة الدنيا . . والمال كثير ، وغدًا يكثر الأولاد ، قالت محتدة :

- لكنه عقيم . هو العقيم . ولن ينجب . مستحيل .

قال الأب فى هدوء :

- زوجك هو كل شىء . ودعى أمر الإنجاب لخالق البشر .

- على العموم ليست هذه مشكلة رئيسية .

- هذا ما أريد أن أعرفه .

- ألا تتضايق؟

- على النقيض من ذلك . . هذا يسعدنى ويريح بالى .

- إذن خذها دون غموض . . هذا الرجل أكرهه .

- عبد الهادى بك؟

قالت وقد أطرقت فى ضيق :

- أجل .

- نغمة غير مألوفة .

- تلك هى الحقيقة المرة .

- وسلوك شائن لسيدة فاضلة تنتمى لأسرة كريمة .

- السيدة الفاضلة تكره وتحب ، ولا يخدش هذا من فضيلتها .

- أتعرفين إنسانًا آخر .

ضحكت فى مرارة :

- للأسف . . لا أعرف . . وهذا يؤكد فضيلتى .

- قال وهو يلوح بيده معترضًا :

- لا . لا . إنها نزعة خطرة وشريرة ، لست مراهقة فى ألتمس

لك العذر، وحتى لو كنت مراهقة لأبيت أن تنساقى مع نزوة شيطانية كهذه. إن اسمى يجب ألا يتلوث، وكرامة الأسرة وسمعتها فوق كل اعتبار. وفتيات الأسرة جميعًا عشن فى بيوت أزواجهن مثالاً للوفاء النادر، والطاعة العمياء.

أخذت عنايات تعبث بخصلات شعرها فى قلق، ثم قالت:

- كنت أعرف ما ستقوله سلفًا.

قام الأب من مقعده، واقترب منها:

- لنفرض أنك لا تحبينه، فماذا ستفعلين إذن؟

- لا أدرى.

- آه.. يجب أن تفهمى أن الطلاق جريمة.. كما أرجو ألا تخطر هذه الكلمة على بالك مطلقًا.. إن مجرد تلفظى بها يؤذى شعورى، ويجعلك فى نظرى ملطخة بالأوحال.

وانتفضت عنايات وهفت فى ذعر:

- أبى...

- لست أبًا لعابثة..

- لم أقصد الإساءة إليك.

- زوجك واحد منا. مثلك تمامًا، ولعله أعز لدى منك أنت.

ولمعت الدموع على أهدابها وفى عينيها وهى تحاول معالجتها فلم يكترث كثيراً بل قال فى حده:

- والحل؟

- أمرك.

- لا شىء سوى أن تعودى إلى زوجك، وأن تقضى بقوة إرادتك وتقاليد الأسرة العريقة على مثل هذه الخزعبلات.. وإذا كنت ترغبين فى البقاء بالقاهرة ففى إمكاننا أن ندبر الأمر، ونبذل بعض الجهود لنقل عبد الهادى بك إلى أحد السجون هنا وما أكثرها، وبعض أصدقائى على صلة وثيقة بمعالى الباشا الوزير.

جفف عرقه، وعاد إلى مقعده، وران عليهما صمت عاصف، ثم أشعل سيجارة وجذب منها نفساً عميقاً، وقال:

- ستعودين إليه، وسأصاحبك إلى هناك بنفسى، وسأعتذر لعبد الهادى بك عنك.. هذا أمر لا يحتاج إلى مناقشة..

ومسح على شاربه الفضى، وعدل من وضع طربوشه، واتكأ على عصاه بعوده الفارع النحيل، ثم خطا خارج الحجرة بخطوات واهنة..

•••

ولم تجن عنايات من بقائها بالقاهرة سوى الهموم المتراكمة، والأصداء التعسة التى تتردد بين جنبات نفسها.. لقد انقلبت

نزهاتها إلى شرود قاتل وتحولت أميناتها العذبة إلى وساوس وملل، واستشعارها للحرية المؤقتة انقلب إلى قلق وصراع مرير، أهى على حق أم أن منطق أبيها أقوى وأصدق؟ هل الحب والكراهية شيئان لا دخل لهما بأمر البقاء فى عصمة زوج مثل عبد الهادى بك؟ كرامة الأسرة فى جانب، ومشاعرها فى جانب آخر، لكن أباها يرميها بالأنانية، ويرمى أفكارها بالفساد، ويسخر من رغباتها وأهوائها، وانتابتها ثورة عامة على كل شىء.. إن أباها لا يعرف شيئًا عن رجل وامرأة فى حجرة واحدة يوشيها الشحوب والبرود والحرمان، وأبوها لا يعرف شيئًا عن قصرها الصغير فى أبى زعبل إنه -فى نظره- بيت أنيق جميل حوله حديقة رائعة تفوح منها رائحة الورود، وتصفى الأشجار على أرضها ظلالاً ساحرة.

وتمتمت: ماذا؟ أأظل هكذا سنين أخرى، وأحيا فى هذا الحرمان والضيق؟؟ والنهاية؟ شيخوخة ثم موت، وبضع آيات من القرآن على روح الفقيدة، ورجال يشربون القهوة السادة وطائفة من فقراء المشايخ والمساكين يملأون بطونهم بالطعام، ويقرأون الفاتحة، وأربطة عنق سوداء، وسطور قليلة فى صحيفة، وسيدات فى أردية سوداء، وقبر ضيق ولا شىء بعد ذلك سوى النسيان.. مصير تعس، لو كنت أحيا كما يحيا بنو البشر السعداء لبرقت أحلامى بالمرح، وتوشت أيامى بالبهجة، ولنسيت كل الآلام والأحزان..

وذات صباح قدم أبوها فى عجلة، وقال:

- انظرى . . إن عبد الهادى بك فى مأزق . .

ووقعت عيناها على صورة عبد الهادى وأحد المسجونين، وعنوان فى الصفحة الثالثة من الجريدة يقول: «تمرد المسجونين فى أبى زعبل . . محاولة قتل أحد السجانين»، وأخذت تقرأ تفاصيل الحادثة، وعدوان السجين «عبد الراضى» على العسكرى «الشلقامى» وإعلان حالة الطوارئ والتحقيق المبدئى، وتصريح مدير السجن الذى يؤكد أنها حادثة فردية. وأن الجو فى السجن مستتب، والحالة هادئة. ولا داعى للانزعاج مطلقًا.

وبان الاهتمام فى عينيها، هى تعلم أنه مريض، وأنها قد أبت السفر معه، وأبوها يحمل عليها فى قسوة ويتهمها بالمروق والتمرد وزوجها -كما يقول أبوها- فى مأزق، وقطع عليها حبل أفكارها:

- أرأيت يا عنايات؟!

ولـمّا لم تجب استطرد:

- سنذهب إليه غدًا . . ستكونين معى مفهوم؟! دون مناقشة.

- أمرك.

ودخلت أمها، كان الحزن يرتسم على وجهها، لقد ناقشت ابنتها من قبل، ولم تقرها على ما أسمته «بسخف النساء المدللات»

وتكلمت فى الأمر مع زوجها أثناء الليل، واتفقا على كل شىء، ولما رأتهما جالسين قالت:

- هل اتفقتما؟

فرد الأب فى مرح ممزوج بالثقة:

- طبعًا.. عنايات بنت أبيها فعلاً.

- بل بنت أمها يا روحى.

- وابتسمت عنايات وهمست:

- لا تختلفا.. ابنتكما معًا.

وأسرع أبوها إلى خدها الأيمن، بينما لامست شفتا أمها خدها الأيسر وهتف كل منهما فى سعادة..

- حبيبتى.

أنجز عبد الهادى بك عمله المرهق فى السجن، وفر منه فى عجلة، كان فى حاجة إلى السرير والهدوء، وإلى التفكير فى عديد المشكلات، وعلى الرغم من أن بيته جحيم صامت مخيف بدونها إلا أنه أرحم من السجن وجوه المشحون بالتوتر من جراء هذا الحادث الرهيب، كان يسير مغضن الجبين وسيات الهموم والقلق مسطورة على وجهه، وحيرة تمسك بتلابيبه، وسمع صوتًا أمامه يقول:

- سيدى.. سيدى..

كانت الخادمة، فصرخ فيها متوعداً:

- ماذا جرى لك يا بنت؟

- سيدتى جاءت . . ومعها سيدى البك الكبير!

أذهلته المفاجأة، وأسعد الخبر قلبه، وأذابت عن قلبه ركامات الهموم التى كان يرزح تحت ثقلها وحده، وتطلع إلى مسكنه الوديع الغارق فى بحيرة من الخضرة الرائعة . . كانت زوجته تجلس تحت ظل شجرة فارعة، وأبوها يقرأ إحدى الصحف . . عادت الحياة والحركة إلى البيت من جديد وانتعش فى قلبه الأمل، وتطلق وجهه، وشعر أنه أشد قوة وبأسًا من ذى قبل، وأن ما تعرض له من مشكلات، وما وجد فى السجن من أحداث أمور تافهة . . تافهة جدًا، ومن الميسور حلها، أجل عادت البهجة . . عادت عنايات، وهرول إليها فى مرح:

- يا أهلاً . . يا أهلاً . . أشرقت الأنوار . . زارنا النبى مفاجأة سعيدة.

ونحى أبوها الصحيفة، ومسح على شاربه الفضى فى اعتزاز، وسعد بقامته متصنعًا الكبرياء، واتسعت ابتسامته وهو يقول:

هل أخمدت الثورة فى مملكتك الصغيرة؟

- كل شىء انتهى . . كل شىء.



وكما تتولد شرارات الشجاعة من أعماق اليأس القاتل انبعثت فى قلبها المستسلم المغلوب على أمره انفعالات خبيثة. انفعالات متمردة. لقد ركنت إلى السكون الظاهرى، وابتسمت. ابتسمت دون مبالاة. وظن عبد الهادى بك أن عنايات قد ثابت إلى رشدها، لم يخالجه أدنى شك فى نزعاتها الشريرة، وتيقن أن ثورتها السابقة كانت مجرد عاصفة طارئة سرعان ما سكنت، وأن ما تناثر من كلمات جارحة كان كالرصاصات الطائشة فى وقت الفزع والتشبث بالحياة.

وها هى تعود -حسبما يعتقد- إلى رشدها ونبلها، وتملأ حياته بالبشاشة، وتسبغ عليه عطفها فى بذخ، ولم يعد يلمح فى عينيها كراهية أو حقداً، وفى ظل ذلك الوئام الجديد سكنت نفسه، وتفرغ لمشكلات السجن، وأخذ يداوى أزمة السجين عبد الراضى والباشسجان- الشلقامى بحكمة وروية حتى استقرت الأمور. وعادت الحياة داخل السجن إلى طبيعتها.

أجل. . سطح البحر ساكن هادئ لكن التيارات التحتية -فى الأعماق- تمور وتعصف من يبلغها تحمله فى وحشية إلى الفناء الأبدى.

وسافر عبد الهادى ذات يوم إلى القاهرة. .

كان سعيدًا لأنها لم تعترض على سفره أو تلح فى طلب السماح لها بمرافقته بل إنه عندما أخبرها بأنه سوف يضطر لقضاء ليلته فى القاهرة لم يلحظ عليها شىء من الضيق أو النفور. . لقد أصبحت عنايات اليوم هى عنايات القديمة المطيعة لأوامر زوجها والتى لم تكن لتفكر فى الاعتراض عليه أو رفع راية العصيان فى وجهه. وعندما انبسطت أستار المساء على العالم من حولها غادرت الحديقة الصغيرة، وأوت إلى حجرة نومها. وارتدت ملابس النوم الشفافة. لم تزل حرارة الصيف تضايقها. والصمت العريض يزيد من مللها. وضوء المصباح الكهربائى جامد كوجه التحدى. معالم الحجرة كلها ميتة جامدة. . سريرها الناعم الوثير يخنقها وكأنه منسوج من أسلاك شائكة، كانت تبذل جهدًا ملحوظًا وهى تشهق وتزفر، لكأن قوى مجهولة تضغط على صدرها. . أحلامها كسيحة حزينة. لطالما حدثها زوجها «عبد الهادى بك» عن سجين كسيح. . كان مخيفًا وشرسًا. . على الرغم من أنه يمشى على عجلات أربع تحت لوح خشبى. المسجونون والسجانون كانوا

يخافونه. كانوا يقولون: «ضربته والقبر» إنه يقبض على مكان حساس فى جسم عدوه عندما يستثيره ولا يتركه إلا بين الحياة والموت. فعلها مراراً مع وكيل نيابة.. مع الشرطة.. مع ضباط أحد السجون.. كان هذا السجين الشاذ يخلق من عجزه وعاهته قوة مدمرة تكمن فى ذراعيه الحديدين اللذين لا يرحمان.

وانبثق من داخلها نداء شيطانى يصرخ: «تريدين رجلاً» ارتجف جسدها كله، وحجبت الضوء عن عينها سحابة غطت على بصرها.. أرادت أن تصرخ.. أن تبكى، وتمتمت فى خوف: «تريدين الخطيئة» وتذكرت أباها بعوده النحيل وشاربه الأبيض، وكرامة الأسرة، وتذكرت النجوم والتاج الذهبى الذى يلمع على كتف زوجها، وتذكرت ماضيها النظيف الذى لم تلوثه شائبة، وانبعث الصوت الشيطانى مرة ثانية «ومع ذلك فأنت تريدين رجلاً..» هى توقن أن زوجها أنانى كريه.. وأن سجنها الذى تعيش فيه من صنع زوجها وأوهامه الوحشية، وشعور بالظلم والقسوة يطاردها؛ ونار الحرمان تلهب كل ذرة فى كيانها. «والعمر قصير يا عنايات.. وزوجك قال لك بالأمس إن أخصائى القلب منعه منعًا باتًا من ممارسة نشاطه الجنسى لفترة طويلة. وأنت تكرهينه. والتضحية يا عنايات أصبحت رمزًا مقيتًا سمجًا، وأنت يا عنايات لا تستطيعين أن تقضى حياتك وأنت تمنحين. تمنحين دائمًا. ونادرًا ما تأخذين شيئًا يرضى أشواقك الجائعة.. أشواق روحك وجسدك».

وضحكت في بلاهة وهي تستعيد صورته.. إنه ذلك السجين الذي أتى ذات ليلة ليصلح من الخلل الذي أصاب توصيلة النور. رجل يدعى فارس إنه فتى ممشوق القوام، مثالي الصورة.. لكنه فلاح سجين.. عرقه ينفث القذارة وإن كانت رائحته تذكرها بدقات الزار وأنغامه الملتهبة الثائرة.. مهما بلغت بها الحماقة والثورة فلا يصح أن تفكر في رجل كالعبيد. إنه عبث. عبث لا شك إذ تفكر في مثل هذا السجين، وهنا الضباط الشبان، ورجال آخرون أقرباء وأصدقاء، وفي القاهرة عشرات الرجال يستحيون أن يركعوا أمام فتنتها.

ونظرت إلى المصباح الكهربائي.. كان ضوؤه يثير غيظها.. وشردت وهي تتطلع إليه، ووثبت فجأة من سريرها. ثم اختطفت سكينًا، وقطعت بعض الأسلاك فانطفأ النور، وساد الظلام، ولمعت ابتسامتها تحت تراكم الظلام، وتحسست الطريق إلى التليفون، وطلبت من الضابط النوبتجي أن يرسل إليها السجين - فارس - الذي أصلح خلل النور في المرة السابقة..

•••

حينما دق السجان باب الزنزانة بقبضته الغليظة، هتف فارس في توتر.

- مَنْ؟؟

وأسرع الحاج سلامة قائلاً فى رعب :

- لابد وأنها نبيهة بنت حسن عرفات . . هذا الـ . .

وجاء صوت السجان قويًا صارمًا :

- فارس هنا . .

ودق قلب فارس من الخوف ، وذعر عبد الحميد هو الآخر ، وقال فارس مجيبًا :

- خير . . أنا موجود . .

واستراح الجميع عندما علموا جلية الأمر ، ونظر عبد الحميد إلى فارس فى خبث وقال :

أيها الملعون . . لعلك دبرت خطة . . أو عبثت ببعض الأسلاك حتى يستدعوك ثانية . إن مذاق الحمام المحشو والسيجارة الكاملة يغرى بالتآمر . حسنًا ، لا تنس إخوانك هذه المرة أيضًا . جعل الله فى وجهك القبول .

لم يتكلم فارس ، ولم تطف بخياله الجائع صورة الحمام المحشو ولا كوب الشاى أو السجائر ، لم يتذكر سوى صاحبة الوجه الفاتن الذى يضج بالنداء الغريب ، ونبراتها الرقيقة الرحيمة ، ورائحة العطر المميز الذى ينبعث فى خياشيمه الآن : إنه لا يطمع فى غير

الرؤية . . مجرد رؤيتها يجعله ينتعش، ويفجر فى قلبه ينابيع السعادة العظمى، وهل يطمع عاقل فى أكثر من هذا؟

الليل هادئ جميل، ملىء بالهمسات والطنين الغامض؛ والنجوم فى عرض السماء تلمع وكأنها ثغور جميلة تبتسم، وطريق المجرة يمتد وكأنه خمار شفاف مستطيل، يذهب إلى بعيد بلا نهاية . . وأشباح الأشجار الكبيرة توحى بالوقار والرهبة . . واستقبلته لدى الباب شاحبة مرتجفة لكنها تمالكت نفسها .

أما فارس فقد ألقى التحية فى ذلة ضارعة ثم أطرق برأسه احترامًا للسيدة الفاضلة زوجة البك المدير، بنت الحسب والنسب .

وأصدرت أوامرها للعسكرى المرافق كى يبقى بالخارج، وأغلقت الباب من الداخل وهى تقول للعسكرى : «حتى لا يهرب السجين يجب إغلاق الباب جيدًا» .

وذهب إلى لوحة التوصيلة الكهربائية وهى أمامه وأحرجه أنها تمسك بالمصباح الغازى فى يدها، ولم يستطع أن يفعل شيئًا جديًا لشدة ارتباكه، وأخيرًا رفع إليها عينين خاشعتين وقال :

- سيدتى . . هذا كثير . . يجب أن تأتى الخادمة لتحمل المصباح .

قالت فى اقتضاب :

- لا تفكر فى هذا . . عد إلى عملك ولا تشغل نفسك بغيره، الخادمة نامت منذ ساعة .

- إذن فليأت العسكرى .

ووضعت حداً لجدله حين هتفت :

- اشتغل .

أخذ يدقق النظر ، ويفحص كل أجزاء اللوحة بعناية ، كل شىء فى حالة جيدة، التوصيلة لا عطل فيها ، فأين الخلل إذن؟ واتهم فارس كفاءته ومعلوماته ، إذن سيفشل فى مهمته ، إنه يفضل الموت على الفشل ، وسال عرقه غزيراً ، وأخذ يعبث فى اللوحة مرة ثانية بأنامل مرتعشة ، كانت عنايات هانم تنظر إلى عرقه السائل ، وإلى بشرته النحاسية ، وقده الممشوق وعضلاته البارزة ، وفى رأسها تطن كلمة «الرجل» .

وهب واقفًا ، وقال وهو يلهث :

- التوصيلة سليمة مائة فى المائة .

- ماذا إذن؟ !

- يجب أن أفحص الأسلاك الداخلية .

- هزت كتفها فى سخرية وقالت :

- افعل ما شئت .

وأخذ يتتبع مسرى الأسلاك، وكأنه يقتفى أثرًا فى صحراء مخيفة يهدده فيها الهلاك والضياع، وهى لم تزل تمسك بيمينها المصباح الغازى، والتفت إليها فجأة وقال: تستطيعين أن تتركى المصباح لى، وتخلدى إلى الراحة، وسأقوم بواجبى خير قيام.

قالت فى حدة زاجرة:

- كفى إنه لا يتعبنى فى شىء.

وبعدت به -عامدة- عن مكان السلك المقطوع، كان يمضى وراء الأسلاك فارع العود كحراس صاحب الجلالة، وهى تقيسه بنظراتها المتقدة وفى حجرة النوم وقفت، ثم قالت له:

ادخل. فدخل، ثم هتفت بصوت متحشرج:

أغلق الباب من الداخل.

- وفعل ما أمرته به دون وعى، وعندما أفاق إلى نفسه وجد أنه وحيد مع زوجة البك المدير فى حجرة مغلقة. حجرة نوم، ورآها تضع المصباح الغازى على منضدة صغيرة، كانت ذبالته الواهنة ترسل ضوءاً معتكرًا، وظلال الأشياء تختلط وتستطيل، وأشارت إليه قائلة:

- تستطيع أن تجلس.

فهتف فى رعب:

- مستحيل.

- لماذا؟!

- سيدتى أنا خدامك المطيع.. أنا..

- اجلس.. هنا على السرير.

وكم كانت دهشته، حينما رآها تقدم عليه وظلال مخيفة ترتعش على وجهها، ثم أمسكت بذراعه، وقادته إلى.. إلى السرير وهى تقول:

- اجلس.. آمرك أن تجلس.

وجلس بعد أن دفعت به إلى مكانه، فتمتم:

- لا تنس يا سيدتى أننى سجين.. مجرم.. أتعرفين؟ أنا عبد البك المدير..

- لا تذكر البك المدير.. إنه فى القاهرة الليلة.. وأنا وحدى.. أتفهم؟ وحدى!!

- لكن لابد من إصلاح الأسلاك.. حتى يتبدد الظلام.

- الظلام يريحنى..

وذهل وهو يراها تأتى إليه، ثم تجلس إلى جواره، وتزحزح قليلاً وهو يقول:

- ثيابى قذرة. أخاف أن تلوث هذا الـ. .

وأعطته سيجارة وهى تقول:

- تستطيع أن تشعلها. .

بقى فى مكانه جامداً، وعيناه ذاهلتان تحملقان فى دهشة، أهو يحلم؟

- خذ. . قلت لك.

تناول السيجارة، كان قلبه يدق، والعرق يبلل ثيابه الزرقاء، ورائحة المستنقع تنبعث من جسده، وشعر بها وهى تمسك بذراعه وتلفها حول خصرها، حاول سحبه فلم يستطع، أراد أن يتكلم فتوقف لسانه عن الكلام، وجف ريقه، لم يعد يرى شيئًا؛ فتح عينيه جيدًا لكنه لم ير شيئًا، كان جسدها ملتصقًا به، وذراعه حول جسدها اللدن، ورائحة العطر تبعث الخدر فى جسده. ثم. ثم أخذت المرئيات تتحدد. . السماء تهبط إلى الأرض. فارس - لاشك- مات وهو فى الجنة الآن، مستحيل أن يصدق ما يرى، كالأحلام الكثيرة التى يراها فى نومه وهو داخل زنزانته السوداء. وأسرعت ثم أطفأت المصباح. فسبحت الحجرة فى الظلام، ولم تعد تشع إلا السيجارة التى تتقد كعين الشيطان الأعوار. كان يفعل أشياء لا قبل لها بدفعها.

ثم انفـثـأت توتراته . . وذابت ثورة جـســده . . وارتمى على سريرها ساكنًا يلهث .

إنه لا يدرى كم من الوقت مضى .

وأشـعلت المصـبـاح من جـديد ، وقـادته فى صـمت إلى السـلك المقطوع ، وعاد الضوء يغرق البيت من جديد وأخذ يجر ساقيه ناحية الباب . كان الجندى يقف فى انتظاره . الكون هادئ تمامًا . والظلام يصبغ كل شيء وأشباح الأشجار تنتصب كهياكل جوفاء لا رهبة فيها . والنجوم تحولت فى كبد السماء إلى عيون متلصصة ساخرة ، ورأسه تمتلئ بالطنين . وجريمة الأخذ بالثأر تلك الجريمة القديمة تبدو أمام خياله وكأنها عمل تافه صغير إلى جانب ما أقدم عليه الليلة من خطيئة .

●●●



استقبله عبد الحميد لدى وصوله استقبالاً حارًا، ومد يده عبر الظلام الذى يغمر الزنزانة وهتف :

- أعطنا مما أعطاك الله .

كان يتوقع أن يعود فارس ومعه حمامة أو جزء من دجاجة محمرة أو قطعة لحم فى نصف رغيف ، لكن عبد الحميد صدم حينما وجده يجلس إلى جواره دون أن يشم غير رائحة التبغ الذى لم تزل بقاياها تنبعث من فم فارس وتمتم عبد الحميد يائسًا :

- يبدو أنها كان بخيلة هذه المرة أو لعلك لم ترها .

وتدخل الحاج سلامة قائلاً :

- كلهن خائنات . كلهن نبيهة بنت حسن عرفات .

وبقى فارس لائذًا بالصمت ، لم تلتقط أذناه شيئًا مما يهرفان به ، كل شىء حدث منذ لحظات لم يزل بصورته الحية النابضة يملأ

كيانه، الجسد الجائع الشره. العينين اللتين كانتا تشعان فى الظلام بريقًا مذهلاً، المرأة التى نسيت مركزها وقداستها وارتمت بين ذراعى سفاح قديم.. رائحة العطر التى أسكرت نزواته الحيوانية ثم أشعلتها. لحظات مرت كحلم مريب، وأخذ فارس يتحسس شفتيه ووجهه. لم تزل ذكرى كل شىء باقية وهو لا يدرى أينشرح قلبه أم يستسلم لأحزانه الغامضة؟ حدث كبير فى حياته أن «يرتفع» إلى حيث تجلس زوجة البك المدير ويضاجعها وتستسلم له دون حرج، وحدث كبير أيضًا أن تشتهيه امرأة وهو سجين ذليل. وتسلل إلى قلبه شعور بالفخر والاعتزاز. لقد اعتلى القمة التى لا مكان فيها لغير السادة الكبار. إذن هناك مكان لأمثاله يستطيع الصعود إليه ولو عن طريق الخطيئة. لكنها جريمة، والزنا كما يقول فقيه قريته كبيرة من الكبائر. إنه أقرب ما يكون إلى الزندقة. إذًا ما جدوى الإيمان بالله إذا تجاهلنا أوامره ونواهيه. لكن خاطرًا خبيثًا يطفو على سطح أفكاره من آن لآخر. إن عبد الهادى بك قد هزم. قد أصيب فى كبريائه على يد سجين تافه. وارتاح فارس لهذا الخاطر بضع لحظات، وتذكر الأساطير التى تروى عن قصور الباشاوات. عن النساء الجميلات المتحللات اللاتى يبعن أنفسهم للشيطان، ويستسلمن للخدم وسائقى السيارة وعسكرى البوابة، ومتشردى الآفاق والأساطير التى تروى عن أخوات صاحب الجلالة المعصومات واللاتى لا يعرفن فى الحياة سوى الخمر والمتع واختيار العشاق. لا

شك أن كل هذه الأساطير حقائق، وأن «عنايات» مثل غيرها من بنات الطبقة الراقية. ومع الحيرة القاتلة، وعذاب الضمير المبرح كان فارس يذكر لحظات الذوبان معها تحت الظلام والأنفاس الحارة المتلاحقة، فيشعر بأحاسيس كانت ممتعة حقًا. . ويعود يتساءل: هل ما حدث كان وهمًا أم حقيقة؟؟.

وجاءه صوت عبد الحميد:

- ماذا جرى لك. ؟

هَمْهَمَ فارس:

- لا شيء. . لا شيء.

- هل فشلت في إصلاح الكهرباء. .

- كان خللاً طفيفًا وانتهى على وجه مرض.

وتحسس عبد الحميد وجهه وذراعيه وقال:

- لكنك تنتفض -وعرقك بارد كالمحتضرين.

- لا داعي للقلق.

واقترب عبد الحميد من فارس، حتى أصبح في مواجهته تمامًا، وتطلع إليه طويلاً محاولاً أن يقهر سلطان الظلام الذي يحد من نظراته، وصرخ:

- ماذا؟ أتبكى يا فارس؟

وانكفأ فارس على بطانيته وهو يشهق ودموعه تسيل غريزة على خديه، وذهل عبد الحميد، وأسرع يمسك برأسه فى حيرة، بينما صرخ الحاج سلامة فى نوبة مباغتة:

- نبيهة بنت حسن عرفات هى السبب -ألم أحذركم منها؟ قلت لكم ألف مرة إنها وباء أصفر. وإنها يهودية بنت يهودى.

ولم يجد الحاج سلامة صدى للحقائق التى يؤكدها، فقد تجاهله عبد الحميد، وأخذ يمسح على رأس فارس فى حنان، ويربت على كتفيه، ويتحسس نبضه وجسده، وقد ظن أن فارس إما مريض أو جرح أحد أحساسه بطريقة فظة؟ وهتف بعد أن كف فارس عن النشيج والبكاء:

- أنستدعى لك طبيب السجن؟

- لست مريضًا..

-هل أساء أحد إليك؟

واندفع فارس قائلاً:

- أجل.. أنا الذى أسأت إلى نفسى..

- ماذا تعنى؟

- جريمة أخرى.

- إنك تهذى.. تريد أن تقول إنك اعتديت على أحد أو حاولت الهرب.

ولاذ فارس الصمت؛ كاد أن يلقى بالقنبلة ليتطاير الشرر ويشاع السر الرهيب، لكن الله سلّم، وأفاق إلى نفسه وتمالك أعصابه وهمس:

- فعلاً.. إنى أهذى.. لا أعرف ما أقول.

وتدخل الحاج سلامة:

- أنا أعرف نبيهة بنت حسن عرفات ولا أحد غيرها.

وكم كانت دهشة عبد الحميد حينما سمع فارس يقول:

- أنت على حق يا حاج سلامة.. هى السبب..

وضرب عبد الحميد كفًا بكف وهو يتمتم:

- لقد جننت أنت الآخر ورب الكعبة.

وصمت برهة ثم قال:

- رجال كالورق. لا يحتملون السجن. ماذا جرى يا فارس؟

ورفع فارس إليه عينين ذاهلتين تتوهجان بالدموع:

- أنا مريض.. مريض يا عبد الحميد.. دعنى أرقد فوق «برشتى» وضع البطانية على جسمى.. إن أعظم خدمة تقدمها لى هى أن تدعنى لعلى أنام..

تمدد فارس فوق «برشه» تغطيه البطانية من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، كان صدره يعلو ويهبط، ولتنفسه صوت واضح يقرب من الغطيط وتطلع إليه عبد الحميد فى حيرة، لكن سرعان ما أخذت حيرته فى الانقشاع.. ليس ما يرى جديداً عليه، كل مسجون له عشرات الأحوال إنه يضحك ثم يبكى ويغنى ثم ينتحب كأنثى فقدت عزيزاً لديها، ويسكن فى ارتياح ثم تفاجئه نوبة صرع قاسية، أغلب المسجونين هكذا.. يعيشون حياة متقلبة متغيرة تثير العجب، لكن خبرة عبد الحميد بها، وشيوعها خلف الأسوار جعلته ينظر إليها دون عجب، ويعالجها فى رفق واطمئنان، وفى الغد سيكون فارس -لا شك- أحسن حالاً، وفى الجبل تحت وهج الشمس الحارقة سوف يمسك بمعوله ويضرب به الصخر، وينجز عمله المقرر، وكل شىء ينتهى إلى خير.

●●●

عندما دق الجرس فى الصباح، وتعالت صفارات السجانة، أخذ المذنبون يهرولون صوب الفناء الكبير، ويتقاطرون على السلم متزاحمين حتى لا ينالهم عقاب الكسالى والمقصرين، وتراصت

طوابيرهم ككل صباح استعداداً للرحيل إلى الجبل، وكم كانت دهشتهم حينما فوجئوا برؤية الباشسجان «الشلقامى» يقدم نحوهم فى حلته الرسمية، وقدماه تلطمان الأرض بقوة وثقة، رافعاً هامته إلى السماء وكأنه يتحدى الوجود، وابتسامة شاحبة ترقد على شفتيه فى جمود، تطلعت إليه العيون ذاهلة بضع لحظات، ثم انفجر صوت كاللغم:

- حمداً لله على السلامة يا جاويش شلقامى.

وكان هذا بداية المظاهرة الكبرى والنداءات الكثيرة العالية المختلطة:

- ألف مبروك يا جاويش شلقامى.

- اليوم يوم عيد يا شلقامى.

- تسلم يا شلقامى..

- ربنا يطيل عمرك يا حبيبنا كلنا يا شلقامى.

وانطلق صوت أجش طغى على كل الأصوات:

- عاش الجاويش شلقامى.

وترد الهتاف عاصفاً كالرعد القاصف، وافتر ثغر الشلقامى عن ابتسامة حقيقية هذه المرة، وتدفق الدم إلى وجهه الكالح وأذنيه،

ورفع يديه ملوحًا شاكرًا وكأنه هتاف الرعية للجلاد الصغير يشق عنان السماء، وتجمهر المسجونون حوله. هذا يصافحه فى حرارة، وهذا يثب ويقبل وجنتيه، وآخر يصر على عناقه وتطويقه بذراعيه، تمامًا كما فعل المصلون ذات يوم فى مسجد الحسين حينما رأوا رئيس الوزراء -وكان رجلاً عنيدًا مكروهًا من الشعب- وتعالت أصواتهم بالهتاف له دون وعى أو تدبر، ولم يقف باقى السجانة مكتوفى الأيدى، بل أخذوا يضربون المسجونين بالعصى والكرابيج بقسوة وهم يبتسمون. كان فارس يجلس فى مكانه -لم يغادره- شاحب الوجه مطرقًا برأسه، وإلى جواره عبد الحميد الذى همس فى أذنه:

- انظر كيف ينافقون!!

وتمتم فارس:

- لو مات شلقامى لصبوا عليه اللعنات، ولرأيت على وجوههم البشاشة نفسها، قال عبد الحميد وهو يصر على أسنانه:

- كل شىء هنا كاذب. حقير. زائف.

- البلد كلها هكذا.

- إنهم يتحركون بالخوف.

قال فارس فى سخرية:

- والشلقامى يعرف كيف يجبرهم على احترامه والهتاف باسمه.

- يخيل إلىّ الآن يا فارس أننا فى مستشفى المجانين. انظر إلى ذلك الرجل المحمول فوق الأعناق.. وجهه محتقن كالدم، وعروق عنقه نافرة، ويده تلوح فى حماسة حقيقية. بالطبع لا يخالجك شك فى صدق عواطفه. لكنه مأخوذ، إنه لا يدرى ماذا يفعل. لقد جرفه طوفان الحماسة الطاغية ففعل كما يفعلون.

قال فارس فى اقتصاب:

- مسخته حياة السجن.

وبرز من البوابة الصغيرة و«عبد الهادى بك» بجثته المترهلة، كان يخطو فى عجلة وتوتر وعلى وجهه سيما الغضب والحنق، وعندما رآه فارس سقط قلبه، ولهثت أنفاسه. لشد ما كنت أحمق بالأمس يا فارس، كيف جرؤت على أن تسطو على عرض الرجل العظيم الذى تلمع فوق كتفه النجوم ويتألق التاج؟؟ هل يعرف الحقيقة لو عرف يا فارس فقل عليك وعلى آلك العفاء!!

وعندما ظهر المدير انطفأ كل شىء، وفى لحظات عاد كل سجين إلى مكانه فى الطوابير الزرقاء المنتشرة على أرض الفناء، وانكمش شلقامى فى ذعر، وأخذ السجانة يضربون هنا وهناك ضربات

طائشة دون حاجة إلى ذلك، وعاد الصمت يغرق المكان كله، وصرخ المدير فى ضيق:

- يا كلاب.

ثم استدار إلى الشلقامى وهتف:

- أغرب عن وجهى أيها القذر، وبعد لحظة وجه حديثه للسجانة:

- بالطبع كنتم تتفرجون!! عظيم جداً.. مظاهرات داخل السجن من أجل ماذا؟؟ عسكرى خرج من المستشفى. وأنتم تتسلون بالفوضى ومخالفة النظام. يجب أن تعلموا أن كل واحد منكم سيعاقب بيومين خصماً من مرتبه.

- والتفت إلى المسجونين:

- وأنتم أيها الأوباش.. «المقطوعية» فى الجبل ستكون مضاعفة اليوم. وسأعرف كيف أعلمكم الأدب.

العفو عندكم ضعف، والتسامح خوف. اللغة الوحيدة التى تفهمونها هى الكرباج وضرب النعال. بالأمس تدبرون لقتله واليوم تهتفون له أيها الخنازير.

وأجال فيهم النظر برهة، ثم تقدم بضع خطوات وقال:

- أريد أن أعرف من الذى بدأ بهذا الشغب.

ولما لم يرد أحد، تقدم إليهم أكثر، ثم أخذ يدقق النظر فى وجوههم ورأى أحدهم مرتبكًا مرتجفًا، فأشار إليه قائلاً :

- أنت .

قام الرجل وساقاه ترتعشان، ويكاد الذعر يقتله :

- أقسم أنى برىء .

- من أذن؟

- إنه . . إنه . .

وأخذ يتصفح وجوه زملائه باحثًا عن ضحية يقدمها قربانًا لغضب البك المدير، ولينقذ نفسه سواء أكان صادقًا فى اتهامه أم كاذبًا، وكانت مصادفة غريبة أن يشير إلى الحاج سلامة الذى وقف وهتف :

- البادئ معروف . . لا تتعبوا أنفسكم فى البحث . . إنها نبيهة . . نبيهة بنت حسن عرفات . . وترددت ضحكات مكتومة، وساد لغط خفيف، وصاح المدير مرة ثانية :

- كفى . . كفى .

ثم استطرد : أعرفكم كلاب أولاد كلاب . والشلقامى كلب مثلكم لكن تأكدوا أنى سأعرف الحقيقة، ورد أحد السجانة : كلهم يا سعادة البك اشتركوا فى الـ . .

وصاح المدير :

- اخرس .

وعاد الصمت ، كانت مئات العيون تنظر إلى البك فى رعب ، والوجوه السمراء التى وشّحها الشحوب تبدو جامدة وجلة كتماثيل من الشمع ، وفجأة تحرك المدير إلى مكتبه ، كانت نظراتهم تتبع موطئ قدمين ، وعينا فارس تنظران إليه بإمعان وتفكير مشحون بالذكريات والانفعالات .

وهمس عبد الحميد :

- قليل البخت . . مسكين يا حاج سلامة . . كاد يروح فى شربة ماء . . زعيم المظاهرة ! ! أليس هذا مضحكًا؟ وأيضًا نبيهة بنت حسن عرفات هى السبب . . كان الحاج سلامة يقف بعوده القمئ وكرشه المتقدم ، ولحيته البيضاء ، ونظراته القلقة ، وحركاته الغريبة المضحكة . . ويهرف بكلمات كثيرة ، كان رمزًا للسخرية المرة .

قال فارس وهو يبتسم :

-هذا الرجل سعيد .

- كيف؟؟ أتعتبر الجنون مرادفًا للسعادة .

- البحث عن السبب هو مصدر شقاء الإنسان . . والحاج سلامة وجد السبب . . كل شئ يعزوه إلى نبيهة بنت حسن عرفات . .

إنها الخيانة والجريمة والضياع والسجن والخديعة . . هى كل رذيلة . لقد عثر على ما يظنه هو حقيقة المأساة فى حياته .

وتحركت الطوابير إلى الجبل الأسود .

إن أمامهم عملاً شاقًا اليوم . . شقاء مضاعفًا يستنزف قواهم تحت وطأة الشمس الحارقة .

وأثناء الخروج ، كان فارس ينظر إلى هناك . . إلى البيت الصغير ذى الحديقة الخضراء اليانعة . . حيث تقف وسط الخضرة امرأة كالزهرة الندية هادئة ساكنة تبتسم فى سعادة . . العيون ترمقها فى إجلال ورهبة ، وأحلام الجياع من الرجال المجرومين تخاف أن تحوم حولها . وفارس يمضى مطأطئ الرأس فى طريقه إلى الجبل .





هى تعلم الآن لماذا يهفو الناس إلى الخطيئة، ليس الجوع وحده هو الذى يغرى باختلاس الطعام، الخطيئة فى حد ذاتها لها إغراء يمكن مقاومته فى بعض الأحايين، ولها نكهة حريفة تفتح الشهية، لم يكن إقدامها على الفعل الآثم مجرد مغامرة، لكنه -الدرجة نفسها- انطلاق من قيود نفسية، وتمرد على أوضاع لا تروقها، بل خيل إليها أنها صاحبة حق أكيد فى أن تخطئ. . هكذا توهمت، وجرح كبرياءها - بادئ الأمر- إنها فعلتها مع سجين ضائع من الطبقة الدنيا، لكنها رأت فى ذلك إمعانًا فى الثورة والانتقام لشبابها المهدور، وحريتها المكبوتة. . لقد مرغت شرف عبد الهادى بك الذى ملأ البيت ضجيجًا واحتجاجًا لمجرد أنها أرادت أن تبقى يومين فى القاهرة، للأسف سخرت أيضًا من فضائل أبيها وحفاظه على التقاليد، ليكن ما أرادوه، ستعيش فى أبى زعبل، وستبتسم فى وجه زوجها، وتضمن له الطاعة العمياء فى ظاهر الأمر، ثم تفعل ما تشاء بعيدًا خلف الستار، ستكون ذات وجهين وجه

الزوجة الوفية الطائعة التى يثنى الناس على أدبها ورقتها، ووجه الخاطئة التى لا تعرف للطهر والعفاف معنى.

قال زوجها:

- كانت ليلة قاسية تلك التى قضيتها بعيداً عنك.

- لكنك كنت معى بذكراك طوال الوقت.

- أتقولين حقًا؟؟

- وكيف أنساك؟؟

- هذا يملأ قلبى بالسعادة.

ثم نظر إليها فى ود وهمس:

- تعالى إلى جوارى يا حبيبتى.

- وزحفت إليه باسمة، لسوف تريه دائمًا ما يسره، لقد أصبح لها عالمها الخاص، عالم حافل مثير تشبع فيه جوعها إلى أى شىء، وتتحلل أيضًا من كل القيود، عالم تفنى فيه وتذوب فى جزئياته بكل روحها.

وطبع على جبينها قبلة فاترة، قبلة أبوية صرفة لا حرارة فيها ولا انفعال، ومع ذلك قالت وعيناها تقعان على وجهه المستبشر: «أشكرك..» هكذا كان أبوها عندما تنجح فى الامتحان، أو تأتى

تصرفًا محمودًا يقبل جبينها، ويثنى على أخلاقها، ورأت عنايات زوجها يطيل النظر إليها، وحزن خفى يخالط نظراته، وتمتم:

- أراك هادئة، هل أنت سعيدة حقًا؟؟

- ليتك تبقين هكذا.

- أعدك بذلك.

- آه.. أنت متقلبة هذه الأيام.. لشد ما أخافك!!

- تخافنى؟؟

- أقسم على ذلك..

قالت وهى تقهقه:

- وحش السجون المصرية يخاف من امرأة!!

- تلك هى المأساة..

قالت وهى تهز رأسها فى شيء من القلق:

- دع هذه الأوهام، ونصيحتى ألا تفكر فى الغد..

مصباح حجرة النوم يشع الضوء الغبى السقيم، وذكريات الأمس تثور فى رأسها. تتوهج باللهب والشهوة الجامحة، والرجل الأسمر ذو الثياب الزرقاء يلوح كحلم شجى، وفى أنفها تتسلل رائحة اللذة المجنونة، وذراعان قويان يعصران عودها الرقيق، ولحية

مدببة الشعر تدمى وجنتيها وتبعث فى جسدها ثورة . . أى حلم رهيب كانت تلك الليلة ! !

وأفاقت على يد زوجها تجذبها إليه أكثر وأكثر ، ثم ضغط على خصرها بيمناه ، وقالت محذرة وعيناها تبرقان فى خبث :

- حذار . . إن أوامر الطبيب يجب أن تنفذ بحذافيرها .

- إن إسعادك فوق كل اعتبار .

- كلماتك الحلوة تزيل آلامى وعللى .

- طريق الغزل محفوف بالخطر .

- ليكن . .

أفلتت منه بلباقة ولشد ما تكره هذه المحاولات اليائسة منه ، دائمًا يبسط لها فى الآمال ، ويفسح له ضيق أمنياتها ، لكن فى النهاية لا تقبض إلا على سراب ، وتبقى بعد ذلك رهينة العذاب والضيق . وذكرى فارس تشبع أحلامها ، وتجعلها فى غنى عن أوهام المتع التى لا تكتمل .

- لا أوافق يا حبيبى على أن تلهو بمصيرك . إن مريض الجلطة القلبية قد ينتهى فى لحظات . . وهذا يورثنى الرعب ، وأنت كل شىء فى حياتى .

هى تعلم أنها تكذب، طالما راودتها أفكار شيطانية. طالما حلمت بموته، وخاصة عندما أيقنت ألا حل لمشكلتها غير الموت.. موته أو موتها.. لكن لماذا تموت هى؟؟ إنها لم ترتكب جرمًا، هى مظلومة يائسة لم تؤذ أحدًا. ذنبها الوحيد أنها تكرهه، ومع ذلك فهى تشعر أنها فى ذلك غير آثمة، الآثم قلبها بل الآثم عبد الهادى بك.

وأخيرًا تناول من يديها جرعات الدواء ثم ألقى بجثته المترهلة على السرير إلى جوارها وراح فى نوم عميق، أما هى فقد استسلمت لأفكارها وهواجسها، وأنست إلى عالمها الذى لا يشاركها فيه أحد، وعالمها المجهول لا يعرف التعقيد، تنطلق على سجيتها وتتخيل ما تشاء دون أن يناقشها الحساب زوج متعنت، أو يلومها أب محافظ على التقاليد، أو تعتب عليها أم تدعى الخبرة والعلم بكل أمور الحياة.

واستيقظت فى الصباح ذابلة العينين، كان الصداع يدق كالمطارق فى رأسها، ورغبة جنونية تسيطر على مشاعرها.. إنها تريد فارس. وفارس هناك خلف الأسوار يلعق أساه فى زنزانته الضيقة، ويثرثر مع رفقائه بلا معنى، أو على سفح الجبل يكسر الصخور، ويبذل شبابه وحيويته تحت وطأة الهجير، وهمست لنفسها.. عندما يخرج فارس من السجن، ويتم الإفراج عنه فلن أتركه. يمكننى أن أقنع عبد الهادى بك بإن يجعله «جناينى» يرعى

الخضراوات والبرتقال والزهور، سيكون خادمًا أمينًا لا شك، ولن يمكنه أن يعترض لأن سجينًا سابقًا مثله لن يجد عملاً يقتات منه. ثم إن كلمتى لفارس أمر واجب التنفيذ، ويكفى أننى سأهبه قلبى وجسدى.. ! وابتسمت عنايات لهذا الخاطر الصبيانى الذى يغذى أحلامها الحبيسة؛ ورآها زوجها تبتسم:

- على الرغم من الابتسام إلا أن الإجهاد باد على وجهك..

- لعنة الله على الأرق.

- عجبًا كنت متفائلة أمس.

- قلقى عليك يؤرقنى.

- أوه يا عزيزى.. أنا لا أفكر فى شىء من هذا القبيل.. دعى الأمر لله.

- تصور أنى أود أن أرافقك حتى فى عملك.

قال ضاحكًا:

- نوبة مفاجئة من الحب؟

- سمها ما شئت.

- أم أنها الغيرة؟؟

قالت وهى تحاول إخفاء سخريتها:

- لكن ليس فى السجن نساء .

- أجل . غير أن التليفون موجود .

- العشق عبر الأسلاك لا يهم، ثم لا تنس أننا سجناء هناك .

إن هذا الحوار ثقيل سمج؛ ويزعجها إيما إزعاج، ولا يترك وراءه سوى الملل والحنق؛ لكنها يجب أن تصبر؛ لقد صممت على ذلك، وما دام قد أصبح لها عالمها الخاص فلماذا تضيق وتمتلئ نفسها بالثورة؟!

وفاجأت زوجها عند خروجه إلى عمله فى الصباح بمطلب غريب، ونظر إليها الرجل وهو لا يكاد يصدق أذنيه، وقال فى حدة :

- هل جننت يا عنايات؟! أتريدين التنزه فى الجبل؟؟

- وماذا فى ذلك؟ الوحدة تكاد تقتلنى .

- لكنه ممتلئ بالمسجونين والمعاول والسجانة وانفجارات الديناميت، وشمسه لا تحتمل .

- هذا ما أريد أن أراه .

- ليس فى أى مظهر من مظاهر الجمال أو الإمتاع .

قالت وهى تبتسم فى خبث :

- لكنى أريد أن أرى رعاياك . إن سلطانك عليهم يسكرنى .

- هذا غير معقول .

- وأنا مصرة .

- ماذا يقولون عنا؟

- سيقولون هذا يوم عيد . . أليس عجيبًا أن نقضى هنا تلك الفترة الطويلة دون أن أرى رجالك وهم يعملون؟

لم تفلح اعتراضاته ، فقد أبت أن تتزحزح عن مطلبها ، ورآها فى تشبثها كطفل مشاغب عنيد ؛ فيركب جوادًا ، وأركبها آخر ، وصعدا صوب الجبل ، كانت تلبس قبعة ذهبية اللون ، وحول عنقها شال أحمر شفاف يتوهج ، وارتدت سروالاً من تلك السراويل الزرقاء التى لا تستعملها إلا فى النادر عندما تذهب إلى الشاطئ ، وعلى عينها وضعت منظارًا أسود ، وطوال الطريق لم يكن عبد الهادى بك يكف عن اعتراضه وضيقه بتصرفها الخارج على حدود اللياقة و النظام ، ولم تكن ترد عليه بغير الابتسام .

وبلغا موطئ أقدام الجبل الراسخ ، وتطلعت إلى الرجال المنحنين على عملهم الشاق من بعيد ، الشمس تشوى الوجوه ، لكن أغانيهم الشعبية تتردد عبر الفضاء ، وبلغ صداها سمعها ، وغمزت جوادها ليتقدم ، فهتف زوجها فى صبر نافذ :

- كفى . . إنها نزهة سمجة .

- أما أنا فسأمضى . . وإن أردت البقاء فلتبق كما أنت حتى أعود .

فتبعها والشرر يتطاير من عينه، ولدى وصولهما إلى منطقة العمل، توالت الصفارات والنداءات، ودبت فى الجموع حركة غير عادية، قالت فى استغراب :

- ماذا؟؟

- كذلك يفعلون عندما تفد عليهم شخصية كبيرة لها اعتبارها مثلى .

- رائع . .

قالتها فى انبهار، وأثلج صدره أن ترى زوجته بعينى رأسها السلطان الضخم الذى يستمتع به زوجها، وتمتم وهو يحاول أن يدارى شموخه .

- هذا شىء بسيط .

الضباط يهرلون ويؤدون التحية، فيلوح بيده فى غطرسة وكبرياء، والعساكر يجرون هنا وهناك ويلهبون ظهور المسجونين ليضاعفوا الجهد، ويظهروا نشاطهم واجتهادهم فى محضر البك المدير، والمعاول تضرب الصخر فى قوة وكأنها فى مباراة عنيفة، وانفجارات

بعيدة تهز الأرض هزًا وتحيل قطع الجبل إلى أحجار صغيرة، وسارت «عنايات» بجوادها وسط الرجال الذين لم يكفوا عن العمل، ثم توقفت لدى أحدهم، وقالت فى صوت لا يكاد يسمع:

- أنت يا . . .

فانتصب المسجون واقفًا وهو يرتعش:

- خدامك مسعود يا حرم الباشا.

- مبسوط؟؟

- البركة فى البك . . ربنا يزيد فى عمره . . أيامه كلها خير وبركة.

وانفجر صوت قريب . .

- عاش الباش المدير . . عاشت الست هانم.

ودوى الهتاف كالرعد . . وكادت تتكرر مأساة «الشلقانى»؛ ولكن الفوضى فى الجبل جريمة كبرى، قد يستغل بعضهم الفرصة ويحاول الهرب، وفى هذه الأثناء لا علاج إلا إطلاق الرصاص، وفى لمح البصر أشار المدير وكان لإشارته معنى يفهمه السجانون والمسجونون، وانهالت العصى الغليظة والكرابيج حتى عاد الصمت يغرق الجبل من جديد، وشحب وجه «عنايات» وهى ترى هذا التصرف الشاذ، وهتفت:

- هذه قسوة مفرطة يا عبد الهادى . . إنهم يحبوننا .

- أنت ساذجة . . إن ما فعلوه يعتبر جرمًا بشعًا .

- عساكر متوحشون .

- ليس للمسجون حق سوى إطاعة الأوامر .

- عبدوية .

- أنسيت يوم حاولوا قتل الشلقامى . . هنا . . على سفح هذا الجبل؟؟

قالت وهى تهز رأسها فى أسف :

- الآن عرفت سبب عدوانهم عليه .

- لا سبب سوى غبائهم وتنكرهم لواجبهم .

ومع ذلك كانت عيناها تجريان هنا وهناك فى لهفة ، كانت تبحث عن رجل بعينه ، وعندما أمرها زوجها بالعودة رفضت أن تنصاع لأوامره ، وواصلت سيرها ، ورآها فارس قادمة عن كثب ، كان يضرب الصخر بمعوله ، فأخفى وجهه بعيدًا عنها ، وظل يمارس عمله فى همة وتوتر ، إنه فعل ما فعل بالأمس تحت جنح الظلام ، وفى لحظة من لحظات الضعف البشرى ، وتحت وطأة الظروف القاهرة ، لكنه الآن فارس السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، والذى يعمل والكرباج مسلط فوق رأسه . إنسان مستعبد

لا ثمن لجهده، ولا قيمة لإنسانيته، لكن شيئًا ما -على الرغم من محاولته التخفى- جذبها إليه، وتمتمت لزوجها بصوت واضح :

- أظنه الكهربائى الذى أصلح النور.

- ذاكرتك قوية. أنا شخصيًا لا أكاد أميزهم من بعض.. إنهم نسخ متشابهة.

غالبت انفعالاتها وهى تنظر إليه، ثم أغمضت عينها بعد أن رأت العرق المغبر الذى يكسو وجهه وعنقه، كم هى ممثلة بارعة!! قلبها يدق بعنف، وذكرى الظلام تبعث القشعريرة فى جسدها، ماذا يفعل عبد الهادى لو علم أن هذا الـ... قد استولى على فراشه ذات ليلة، ونسى فارس نفسه، كان يشعر أن نظراتها تنصب عليه وتعريه من كل شىء وراوده إحساس خبيث.. ماذا لو نظر إليها.. ثم استقام عوده.. وابتسم لها.. وكادت أن تبتسم لولا أن أهوى السجان بكرباجه على وجه فارس وهو يصرخ به :

- اشتغل يا حمار..

وعاد فارس إلى عمله بينما شهقت عنايات هانم فى جزع :

- أيها الحيوان.. لماذا تضربه؟

فتدخل عبد الهادى بك قائلاً :

- أوه.. إنه وقح للغاية.

- لماذا؟؟

- نظر إليك.

- النظر جريمة؟

ولم يفكر عبد الهادى بك فى الرد على تساؤلها، بل ضرب جوادها بسوطه، ثم غمز جواده فتواثب الجوادان وانطلقا منحدرين صوب بيت المدير.

●●●

وبعد دقائق همس عبد الحميد فى أذن فارس:

- إنها تذكرك.

- «. . . . .».

- ونعتتك بالكهربائى. . واعتصم فارس بالصمت، كان قلبه يذرف دموعًا غزيرة، إحساسه بالهوان هذه المرة كان قاسيًا مروعًا، لو خيره بين الموت وهذا العار لاختار الموت عن طيب خاطر. لقد مرغوا كبرياءه -كرجل- أمام أنثى أغدقت عليه حبها ذات مساء.

●●●



ليست تدرى عنايات لماذا هبط عليها ذلك العناء كله ، حاولت جاهدة أن تنسى منظر اللوحة القاتمة التى رأتها فوق الصخور السوداء ، لكنها لم تفلح ، نظرات الرجال ذوى الأردية الزرقاء كانت تسترق النظر إليها فى خوف ، مظهرهم الإنسانى كان ممسوخًا تمامًا ، لقد عاشت عنايات عشر سنوات مع زوجها ، وطوال هذه المدة كان يمارس عمله فى السجون ، كانت ترى المسجونين وهم يروحون ويجيئون ويعملون ، لم تفكر قط فى أنهم مأساة دامية ، أو لعلها ظنت أن هذا الصنف من الناس لم يخلق إلا لمثل هذه الحياة القاسية ، إن استعدادهم النفسى والسلوكى وكذلك جلدهم الجسمانى يؤهلانهم لهذه المشاق ، هكذا توهمت ، لكن كل شيء أخذ يتغير فى مخيلتها منذ أن عرفت فارس ، إن الضربات التى انهالت عليه آلمتها ، والإهانة التى لحقت به شعرت بعارها يلاحقها . . كان فى الحقيقة عدوانًا عليها ، وعتبت على زوجها عبد

الهادى أشد العتب، وحملت حملة شعواء، على نظام السجون الذى يهدر كرامة الإنسان، وقالت فى حدة:

- يا عزيزى عبد الهادى إنه مجتمع كريه بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لم أر لمحة حب واحدة فى المحاجر السوداء.. السجان عيناه تبرقان فى حقد وشراسة، المسجون ترى الذلة فى عينيه، الذلة الغريبة التي تخفى وراءها كراهية هائلة.. حتى الابتسامات فوق ثغور الجميع ابتسامات مخيفة. الآن آمنت أن ما ينقصنا هو الحب.. الحب بمعناه الكبير.. لماذا لا يشعر السجان والمسجون بشعور الود والإخاء؟ لكن ماذا أقول؟ إنها مشكلة شعبنا بأسره.. ليس هناك حزب يحب الآخر. خلاف الرأى معناه العداء. الموظف يقبل على عمله فى ملل.. لا يحب وظيفته.. المرؤوس لا يحترم رئيسه.. بل يخافه.. الزوجة قد تداهن زوجها وتظهر العشق ويعلم الله ما فى قلبها.. لولا خوفها من حياة الوحدة والتشرد والمصير المظلم فى مجتمع يتهم النساء الخاليات -اللائى يعشن بلا رجل- لكان لسلوكها وجه آخر.. الحقيقة يا عبد الهادى أن مجتمعنا موبوء تعشش فيه شتى الأوبئة.. هو مجتمع يفتقر إلى الحب.

كان عبد الهادى يرهف السمع صامتًا، يلتهم كل كلمة تصدر عنها، إن من تتكلم أخرى غير عنايات التى يعرفها، عنايات كانت تعيش بلا هموم ولا ترهق أفكارها بالفلسفات، تأخذ الأمور أخذاً

هينًا رفيقًا، لكنها اليوم تتحدث من ثقافة الروايات والقصص التى تقرؤها حصيلة لا بأس بها، لكنها كانت تتسلى وتملأ فراغ حياتها بالقراءة، ولم تكن تفكر قط أن تكون زعيمة من زعماء الإصلاح، فما الذى جرى!؟ ومع هذا فقد سخر عبد الهادى من كلماتها.. إذ كيف يؤمن بقول امرأة ترى أن المشكلة الكبرى هى فقدان «الحب»؟! والحب كما يفهمه عبد الهادى عاطفة بلهاء لا يتكلم عنها إلا المراهقون والمراهقات، وفتيان المدارس وفتياتها، وبنات الليل ومن يلوذ بهن من الرجال الضائعين.. وظن عبد الهادى أن زوجته المسكينة تفرض حلاً رومانسيًا لواقع الحياة الأليم، وتعرى كلامها من الحرارة والإقناع والتنميق أمام نظراته الصائبة الواقعية، وقال وهو يبتسم:

- إذا طبقنا نظريتك فى السجن فستعم الفوضى.

- لماذا؟؟

- المسجون والسجان أخوان!! أليس هذا مضحكًا؟ عندئذ ستبقى أحجار البازلت كما هى دون تكسير.. وسيأتى المجرم من الخارج تاركًا وراءه حياة الشوارع والأرصفة والمصاطب ليجد نفسه نزيل فندق مريح لا تنغيص فيه ولا عقاب.. وبهذه الطريقة الشاعرية يا عزيزتى ترين الناس يتسابقون إلى أبى زعبل وطره وغيرهما.. بل يدفع الواحد منهم (خلو رجل) لآخر كى يجد

لنفسه مكانًا خلف الأسوار. هؤلاء الآثمون يا عزيزتى مسلحون بالمكر والكراهية. ولا يفل الحديد إلا الحديد.

قاطعته عنايات قائلة:

- لنفرض أنهم مرضى بداء الكراهية فلماذا لا نعالجهم بالحب؟

- لأنه علاج فاشل.. وعلى العموم، نحن لسنا فى مصحة، بل هنا عقوبة لمن أجرم.. السجن عقوبة ولا شىء غير هذا.. ذلك اعتقادى، رجل قتل آخر، ماذا أعالج فيه؟ لقد قتل.. والمفروض أن يقتل هو الآخر، لكن القانون أراد له أن يعيش سجينًا، ليس هذا تهاونًا من القانون، ولكنه فعل ذلك -فيما اعتقد- ليجعل منه عبرة لغيره. إنها حياة ميتة، وستبث الرعب فى نفوس أقربائه وأهل قريته، وستظل مأساته سيفًا معلقًا فوق الرقاب.. والدولة يا عزيزتى لا تعرف التدليل والعالم يسير بسرعة ولا وقت لدينا كى نفكر فى تدليل هؤلاء الشواذ الذين طبعوا على العناد والانحراف.

وصمت برهة، ثم وثب إلى ذهنه سؤال، فهتف:

- تتكلمين عن الحب.. أنسيت أنك ذات يوم صرخت فى وجهى بأبشع ما سمعته أذناى، وقلت لى: أكرهك؟ أليس عجيبًا أن تلبسى مسوح مصلحة اجتماعية وتحملين لواء الحب وتبشرين برسالته وأنت نفسك لا تلتزمين بها دائمًا.

نزلت كلماته كصفعة على خدها، زلزلت من ثقتها بنفسها، آه لو عرف. إنها فعلت ما هو أبشع من ذلك!! آه لو عرف قصة الخيانة تحت ستر الظلام. سوف يكفر إذن بكل شيء إلى الأبد.. وشعرت بالخجل والعار، لكنه ينظر إليها وينتظر كلماتها:

- أنت تعلم يا عبد الهادى أنى لم أكن أقصد ذلك.. عند الغضب أتصرف كحمقاء وأهذى بكلمات سخيفة أبعد ما تكون عن الحقيقة. ليست الكراهية أو الحب كلمات تقال، وإنما هى أسرار مقدسة تسكن القلوب.

قال فى ألم:

- لكن نثار الغضب يا عزيزتى له مضمون قاتل..

- كيف؟!.

- فى الغضب يعبر الإنسان عن مكنون ذاته، وحقيقة عواطفه.

- كلا.. الغاضبون يتصرفون كحيوانات.

أطرق برأسه وهمس:

- أرجو أن يكون ذلك حقًا..

- لا تشك..

- يا ليت..!!

- واستمع بجنة اليقين . . والثقة .

- سأحاول . . .

هى تخدعه ، وتعلم يقينًا أنها تخدعه ، بالأمس خائنة ، وما زالت على استعداد لأن تخون ، تريد أن تصنع له عالمًا وهميًا من اليقين والثقة ليحيا فيه غافلاً ، فتنام عيناه عنها ، وتستمتع هى بلحظات الخطيئة ، ولا مانع من أن تتهم نفسها بالرعونة والمسلك الحيوانى عند الغضب ، ومن قلبها الآثم تنبعث دعوات الإصلاح الاجتماعى الضخم ، ومن بين شفتيها الملوثتين بلعاب سجين عريق تخرج كلمات الحب . واليقين . . والثقة . . ولم يكن يخفى على عنايات اللعبة الخطرة التى تزاولها ، لكنها ملاك . وهى أيضًا شيطان البراءة التى فى عينيها لا تعكس عربدة الأبالسة فى أعماقها ، أرادت بعض الانطلاق والتعبير عن ذاتها فحاصرتها تقاليد قاسية لا ترحم . . زوجها . . قاس . ولص . . وأنانى . ومريض . لكنها مجبرة على العيش معه ، وتقديس أوامره ، وتقديم فروض الولاء والحب ، ولهذا شعرت أن كيانها ينقسم وأنها تعيش بصورتين متناقضتين تمامًا . عنايات الظلام والعذاب النفسى . وعنايات الضوء المشرق والناس ورعاية التقاليد وحياة الزيف ، والغريب أنها كانت بدرجة تجعلها تفهم -إلى حد كبير- عناصر مأساتها المتغلغلة فى أعماقها .

وقالت عنايات فجأة :

- سوال غريب ! !

- ما هو ! !

- أتستطيع -لا قدر الله- أن تمسك معولاً وتقضى الساعات تكسر الصخر تحت حرارة الشمس القاتلة، وأن تتلقى -لا قدر الله أيضًا- ضربات السجانة وشتائمهم المقذعة؟؟

- سؤال غريب حقًا. ومخيف فى الوقت نفسه.

- لكنى أريد رأيك . .

قال وهو يضع ساقًا على ساق :

- مثلى لم يخلق لهذا .

- لماذا؟

- لأنى لست مجرمًا. ودماء أجدادى لا تجرى فيها تلك الجراثيم الخبيثة . . .

- وما هى الجريمة فى رأيك؟

- القتل . . السرقة . النصب . هتك العرض . الإتجار فى المخدرات . . إلخ . . أعنى الأشياء التى نص عليها قانون العقوبات .

وانتابتها موجة عارمة من الثورة المكبوتة وهتفت:

- أعذرني.. قد أكون وقحة بعض الشيء، بماذا تسمى قبول الرشاوى!! وبماذا تسمى السمسمرة من قوت المساجين؟؟ وهل يعتبر بعض الشرفاء -ذوى الدم النقى- هاتكى عرض عندما يقضون الليالى الحمراء!! أليست هذه جرائم؟ ثم ذلك العدوان القاسى على المساجين العزل من كل سلاح.. أهذا شيء يكفله القانون. القانون إياه؟

وهب عبد الحميد بك واقفًا، وصرخ:

- هذا تعريض صريح.

- لا أقصد.

- هذه جريمة منك أن تحاولى النيل من كبريائى كزوج.

- ما أردت إغضابك.

- لكنها طعنات قاتلة.

- أقسم ما أردت سوى الوصول إلى حقيقة واضحة.

- وأنا أرفض الاستمرار فى ذلك الجدل العقيم.

خفضت نظراتها، وهمست:

- آسفة.. يبدو أنى تجرأت بعض الشيء.

- لشد ما تغير يا عنايات . .

- لتغتفر لى هذه النزوات . .

- لكنها تنذر بكارثة . .

رفعت رأسها فى دهشة وقالت :

- ماذا تعنى؟؟

- إنك تتحولين . . وأراك تطرقين أبوابًا يكمن خلفها الخطر .

- هل التفكير ممنوع؟؟

- ليس كل التفكير .

- لكننا لن نحدد من قبل ما يجب أولاً يجب الحديث فيه .

- عودى كما كنت . هذا ما أريده .

- مستحيل .

قال فى قلق :

- كيف؟؟ أتعصين أوامرى؟؟

- هذه مسألة مغايرة تمامًا لواجباتى كزوجة . .

- لكنى أخالفك . .

- التفكير شىء تلقائى لا حيلة فيه . إنه كالهواء الذى نستنشقه .

قال وهو يجفف عرقه :

- لكننا بطبيعتنا السوية نبعد عن مصدر الهواء الفاسد أو المحمل بالروائح الكريهة .

- هذه مسألة نسبية .

- إنك تتحدين إرادتى .

- وإرادتى؟؟

- من إرادتى أنا . . أنا زوجك . . وولى نعمتك .

قالت شاردة :

- آه يا عزيزى . . أنا لا أفهم ما أقول . . الألم يعتصر رأسى . والهواء هنا خانق . . وجو الحجرة ساكن ممل . أستحلفك بالله أن تأتى معى لنسير قليلاً على شاطئ الترعة حيث الليل والهواء والسكون الشامل المريح .

قال بحدة :

- لكننى متعب .

- ستحظى بالانتعاش هناك .

- لا . .

- إذن سأذهب وحدى . .

فهدر فى ضيق ظاهر . .

- لا تستطيعين . .

ورأت نذر أزمة وليدة توشك أن تنشب ، وهى لا تحتمل مزيداً من الأزمات ، وزوجها مريض بالقلب وضغط الدم والسكر ، وهما وحدهما ولا داعى لأحزان جديدة ، ولهذا قامت واقتربت منه ، ثم طوقته بذراعيها ، ورفعت وجهها إليه ، لكنه حاول الابتعاد عنها فلم تمكنه من ذلك ، وألحت فى الالتصاق به ، ولامس ثغرها شفتيه المرتعشتين و لم تتركه إلا بعد أن تجاوب معها فى قبلة بلا معنى .

- إذن سنذهب للتنزه قليلاً .

قال وهو يغتصب ابتسامة فاترة :

- سنذهب .

- آه . . كم أحبك يا زوجى العزيز ! !

لكنه قال محذراً :

- لكن إياك وذلك الجدل العقيم .

- اطمئن . . لن أضايقك ثانية .

وبدون مقدمات ، هتف وقد ارتسمت على وجهه سمات الجد :

- أنت حالمة . . أنا لا أسرق قوت المسجونين ، ولا أتقاضى

الرشاوى . . أيتها الغبية إنها امتيازات أزلية . تسطيعين أن تسميها حقوقًا مفروضة . فأنا أبيع للمجتاجين خدماتى . . أتظنين أن مرتبى يكفى؟! كان من قبلى يفعلون ذلك . . ماذا خسرت الدولة بنقل سجين من الجبل والعمل الشاق إلى مستشفى السجن مقابل بضعة جنيهات لى؟ أهذه جريمة؟ إنك لا تفرقين بين القانون كمواد جافة وكواقع حى متحرك . دعى هذه الأمور يا عزيزتى ولا تفكرى فيها . فزوجك أكثر خبرة وأكبر سنًا منك ، لماذا تثقلين رأسك الجميل بمثل هذه الخزعبلات التى لن تجنى منها غير عذاب الضمير و . . وإغضاب زوجك الذى يحبك؟

وعادت تقول فى شرود :

- عندك حق :

- بالضبط .

- هيا بنا .

- عندئذ نستطيع أن نستمتع بهواء الليل المنعش يا عزيزتى . . وتعتبر أن معاهدة الصلح بيننا لم تزل قائمة .

وقهقهه . . كان جسده المثقل يهتز . وأنفاسه تتلاحق . . كأنه فرغ لتوه من سباق مرهق .

●●●



جن جنونها وهي ترى زوجها ملازمًا لها، يذهب إلى السجن ليؤدى عمله ثم يعود بعد ساعات قليلة، ويظل بالبيت لا يغادره حتى يحل المساء، فتمر السهرة بطيئة الخطى، مملة بما يدور فيها من أحاديث تافهة، لا تحرك الشعور أو تبعث على السلوى. والرغبة الآثمة تعربد فى جسدها كلما أقبل الليل، فانطفأ المصباح، وغمر الحجرة ظلام وسكون لا يقطعه إلا غطيط عبد الهادى بك المزعج، وتخبطاته السمجة أثناء نومه كأن يلقى بساقه الثقيلة عليها أو يمد ذراعه فوق وجهها ويكاد يخنق أنفاسها؛ ومن آن لآخر تنطلق منه نوبات سعال تطير النوم عن أجفانها وتزيد من أرقها وإنهاكها.

إلى متى تنتظر؟ ماذا لو بقى هكذا شهورًا طويلة لا يغادر «أبو زعبل» ولا يريحها من ظله الثقيل ولو لليلة واحدة؟ هذا الكابوس الثقيل يزيد من ضيقها وحنقها، واللذة الآثمة أصبحت فى خيالها كأمنية عذبة شجية لا تفارق أفكارها ليل نهار، والأدهى من ذلك أنها مرغمة على أن تبش فى وجه عبد الهادى بك، وتبتسم له،

وتظهر ضروب الميل نحوه، وتحمل إليه الطعام والدواء فى رقة زائدة، وتخفف من آلامه بعنايتها الفائقة، وكلماتها الموالية المهذبة . . لكن إلى متى؟! أليس لهذا الصبر من نهاية؟!

وابتسمت فى خبث وهى تتذكر كلماته عن دمه النقى الذى لا تجرى فيه جراثيم الجريمة، وابتسمت أكثر وهى تتذكر أباها بسمعته ومركزه العالى وشرفه الذى لم يلوث، ولا شك أن أباها هو الآخر لم يجر فى دمه جراثيم خطيئة.

هى لم تعد تستطيع الانتظار، ويبدو أن السماء ليس لديها حل حاسم لمشكلتها . . إنها تستغفر الله قد يكون الحل فى الطريق، فعين الله لا تنام وهو لا يرضى عن الظلم، إنه يمهل ولا يهمل، لكن الانتظار يؤرقها، والصبر عذاب، لعل هذا من ضعف الإيمان . . لتحاول هى أن تبحث عن الحل، ولماذا تترك الأمر للأقدار بعد أن تمرغت فى أحضان الرذيلة؟

عبد الهادى بك يجب أن يموت!!

وضجت هذه الأفكار المريعة فى عالمها الخاوى، وتردد صداها عنيفًا فى رأسها. هذه هى الجريمة. قتل مع سبق الإصرار والتربص . . معناه الموت، لكنها لن تكون جريمة بأية حال من الأحوال . . رجل مريض بالقلب والضغط والسكر لا يستغرب أحد أن يموت هكذا فجأة . . هو نفسه يعلم أن حياته على كف عفريت.

وتدق أجراس السجن في سرعة وعنف شديدين معلنة عودة المسجونين إلى زنزاناتهم السوداء، ودق مع الأجراس قلبها الواجف اللاهث، وخيل إليها أن العالم من حولها يعرف الكثير عن نواياها السيئة، لو جاء عبد الهادى الآن ونظر إلى وجهها لأصابه الخوف والذهوب. سيقرأ على ملامحها قصة الغدر المرتقب. سيعلم أن زوجته عنايات سليلة المجد والحسب تدبر لقتله. وسيتطلع إلى وجهها الفاتن الجميل ويصرخ مستنكراً: مستحيل.. مستحيل أن يكون هذا الوجه النضر الملائكى وجه سفاحة. وأمها لو هبطت عليها فى زيارة مفاجئة فستقرأ ما يعتمل فى ضمير ابنتها وكأنها تتلو كتاباً مفتوحاً. أما أبوها فهو على قدر لا بأس به من البلاهة، إنه لا يصدق أن ابنته التى رباها على المثل والأخلاق الفاضلة، وتقديس الحياة الزوجية تفكر فى ارتكاب جريمة قتل. حتى ولو سفك الدماء ولا قدرة لها على الولوغ فيه.

وهى تقرأ كثيراً: أن الجريمة لا تفيد. إن هناك أصابع خفية تشير إلى المجرم دائماً، وعيون الناس تتجه إلى مصدر الإثم، لها حاسة غريبة لا تخطئ يستوى فى ذلك الذكى والبليد، وعندما يموت مدير سجن كبير.. ضابط كبير - هكذا فجأة، فستنطلق همسات الشك، وقد ينكشف المستور، وتجد عنايات نفسها بين عشية وضحاها جالسة فى قفص الاتهام تحاصرها آلات التصوير، وتلوك

الألسنة وأقلام الصحف سيرتها وقصة حياتها . . عندئذ سيموت أبوها من الحزن والفضيحة ، وسيتمرغ شرف الأسرة الفاضلة فى الرغام . وبدلاً من أن تجد السعادة والنعيم بين أحضان رجل تحبه ، وتحت سقف بيت تعشقه ، ترى نفسها رهينة زنزانة قاتمة كتلك التى يعيش فيها «فارس» .

وأدركت عنايات ما تعانيه من جبن لا حدود له . هى أضعف من أن تحسم أمرًا ، ستظل هكذا سجينة خوفها وترددها ، وستقف على الحافة . دائمًا لا تستطيع أن تعبر الهوة المظلمة التى تفصل بين الشقاء والسعادة - بين العبودية والحرية بين الموت المعنوى والحياة الحقة التى تليق بها كإنسانة .

ودق جرس الباب فانتفضت فى رعب . . كلص كان يعالج فتح خزانة وفجأة سطع نور ، وبدد الظلمات ووجد نفسه محاصراً بالعيون وأسلحة الشرطة . لكنها تمالكت أعصابها ، وأسرعت لفتح الباب ، ودخل عبد الهادى بك فى عجلة وهو يقول :

- النسيان داء وبيل .

آه . . ألا يكفيه الأدواء التى تعمل فى جسده وقلبه؟ إنه يصر على أن يضيف داءً جديدًا إليها . . النسيان . لشهد ما تكره كلمة الداء . أصبحت هذه الكلمة مرتبطة فى ذهنها بعبد الهادى بك . عبد الهادى يعانى العلل والأوجاع .

- بل النسيان عقار لذيذ يا حبيبى .

فلم يعر فلسفتها الخاوية أدنى اهتمام، بل اندفع قائلاً :

- كان الأمس موعدى مع الطبيب .

قالت فى لهفة :

- وماذا ستفعل؟

- لا بد من الذهاب الليلة .

قالت وقد غمرتها فرحة العمر :

- لا يا عزيزتى . . الوقت متأخر . .

- لا يهم . . فالطبيب لا يأتى إلى مستشفاه إلا فى السادسة مساء

همست فى دلال :

أتتركنى وحدى؟؟ هذه قسوة .

كانت تخدعه، تعبر عكسيًا عما يعتمل فى قلبها الذى يرقص طربًا، لكن هكذا يكون الدهاء . .

- هذا ما يؤلمنى يا عزيزتى .

وتمادت فى خداعها قائلة :

- خذنى معك .

وكم كانت دهشتها وأسفها عندما سمعته يقول :

- أمرك . . لا مانع .

آه . . يا لغبائها ! ! ستفلت الفرصة التى طالما انتظرتها منذ أمد طويل ، الفرصة التى تتمنى أن تدفع حياة زوجها ثمنًا لها . . أو حياتها هى ، وشعرت بمرارة ويأس قاتل ، فقالت دون وعى :

ستبقى إذًا أسبوعًا فى القاهرة .

قال فى حدة :

- أما هذه فلا يمكن .

إذن ستكرر مأساة المرة الفائتة ، وسيعودان للشجار والخلافات التى لا تترك وراءها سوى الأرق والدموع والحزن ، واستطرد عبد الهادى بك قائلاً :

- عندى فكرة :

- قلها . .

- أنا عائد فى الصباح الباكر ، لا أستطيع ترك السجن لأن التفتيش السنوى على الأبواب ، وقد يأتى مدير عام السجون فى أى يوم من الأيام ، ومن ثم يحسن الانتظار نحو شهر . عندئذ أعدك بعطلة أسبوع تكون لك وحدك . قالت فى حزن مصطنع :

- إذن فأنت مصر على تركى وحدى .

- هذا يعز على يا حبيبتى - لكن ليس لنا فى الأمر حيلة ، الصبر طيب ، والعمر طويل ، وسنستمتع بلا حدود .

ونظرت إليه وهو خارج بعد ساعة ، وراودتها أحلامها الحاقدة ، ليته لا يعود ، الأقدار تعاند لا بد أنه سيعود ، وسيظل ملازمًا لى كالكابوس المزعج ، وسأبقى أسيرة الأسى والعذاب والقلق حتى تنهار أعصابى فجأة ، وتوارى شبحه بعيدًا ، وتلفتت حولها ؛ البيت ساكن هادئ ، وضوء الشمس المحتضرة يذوب فى عتمة المساء المقبل ، والخادمة تنظر إليها بعينى قطة خائفة ، وصرخت عنايات :

- يا بنت . .

- نعم يا ستى .

- تناولى عشاءك واذهبى لتنامى فورًا . . ولا تغادرى حجرتك إلا فى الصباح .

- لكن الوقت لم يزل مبكرًا . . وأنت وحدك .

- لا شأن لك يا وقحة .

ثم خففت من حدة نبراتها قائلة :

- لقد تعبت اليوم . . والمرض باد على وجهك . يجب أن تنامى حتى تستيقظى فى الصباح بحالة جيدة . ولا تنسى أن وراءك أكوامًا من الملابس لغسلها . . أتفهمين؟؟

- أمرك يا ستى . . .

وانتشرت فى جسدها المشتعل حيوية ذات مذاق خاص ، واندلع من عينيها بريق متألق ذو دفء ملحوظ ، وبحثت عن المقص حتى وجدته ، وقصدت إلى الأسلاك لتقطعها بالطريقة السابقة نفسها . لكنها قطعتها هذه المرة بأعصاب قوية ، وهى تتوقع كل ما سيحدث بعد ساعة . . كل شىء حسبما ترسم . . هذا التدبير الشيطانى هو أقصى ما تستطيعه ، إنه لا يقارن بتدبير قتل عبد الهادى بك .

شتان بين هذا وذاك . إن قطع الأسلاك لا يكلفها شيئًا .

وأدارت قرص التليفون وخاطبت الضابط النوبتجى :

- أصبح أمر النور مزعجًا للغاية . . لا يكاد يمر أسبوع حتى يصيبه الخلل . .

وجاءها صوت الضابط :

- فورًا سيتم إصلاح كل شىء .

- أرسل لنا الكهربائى - فارس - أجل - فارس .

ووضعت السماعة . . وحلمت باللقاء المشحون بالانفعالات

والعبث والتحرر . . حرية آثمة، لكنها تشبع فيها أشواقًا كثيرة، وترضى أهواءها الممزقة. وجرت إلى حجرة النوم. . كل شيء رائع - تستطيع هذه المرة أن تتجنب الخوف والقلق. تستطيع أن تأتى الخطيئة فى غير قليل من الرضا والمتعة. لقد فعلتها وانتهى الأمر، يجب أن تنسى شيئًا اسمه الضمير، ويجب أن تنسى أنها تعشق سجينًا حقيرًا من الطبقة الدنيا. وسفاحًا من الطراز الأول. ومن الضرورى أن يأكل فارس هذه المرة. . ويشرب. ويتكلم. ويكون شجاعًا، هى تستطيع أن تجعل منه شجاعًا، وأن يتصرف وكأنه فى بيته، ولا يفكر مطلقًا فى سعادة البك المدير. الحقيقة الوحيدة التى يجب أن تملأ قلبيهما وتملأ رحب هذه الحجرة هى أنهما حبيبان. . حبيبان ولا شيء غير ذلك.

وأضاءت المصباح الغازى. . وجلست تنتظر فى قلق - كان قلبها يدق وجسدها يرتعش، وتشعر بالبرودة برغم حرارة الجو.

ودق الجرس. . وهتفت فى بهجة:

- لقد أتى. .

وجرت إلى الباب كطفلة غريرة لا تعرف الحرص أو الهموم، وعندما فتحت طالعتها وجوه رجال أربعة. . رأت حارسين مدججين بالسلاح. واثنين من المسجونين أحدهما فارس. . وهتفت فى ضيق:

- ما هذا؟

قال أحد الحارسين:

- حضرة الضابط أرسل اثنين حتى يصلحا النور فى دقة.

قالت فى سخرية حاقدة:

- كونصلتو؟؟ لا . . يكفى هذا.

وأشارت إلى فارس ودعته إلى الدخول، وقالت لأحد الحارسين:

- عد بالآخر إلى السجن.

وكان لها ما أرادت.

دخل فارس وحده كالمرة السابقة، وأمرت حارسه بالبقاء في الخارج، وأغلقت الباب، وهمست فى فرح صبيانى:

- ليس هنا سوانا.

ولّماءلم يجب، قالت فى جسارة وهى تمسك بزنده:

- ستكون أشع قلبًا هذه المرة.

ورأته مطرقًا مهمومًا، فوقفت وقالت:

- لماذا لا تبتسم؟

وسكرت بالنشوة وهى تسمعه يقول:

- كنت أنتظر هذه اللحظات على أحر من الجمر.

- أتحبنى حقيقة؟

- كما لم أحب أحدًا من قبل.

- حياتى كانت فارغة تافهة. ثم أصبحت مليئة بكل رائع وجميل.

- وكيف أصدقك؟

- هكذا..

- ماذا قلت عنى فى تلك الليلة؟

- قلت حورية من الجنة هبطت إلى لتبعث الدفء فى حياتى.

- أقصد.. أتتهم سلوكى؟

- لماذا؟

- لأنى أخون..

- لكنه من ناحية أخرى وفاء لقلبك، ولمن تحبين كل شىء ذى وجهين..

- قالت فى نشوة:

- لكنى لا أرى الآن إلا وجهًا واحدًا، وجهك يا فارس.

- ألم تري وجه الجندى الذى صفعنى؟

- أوه. دع هذا الأمر، لكم عذبنى.

- خيانة مثل هذا الوغد ليست جرمًا.

- تقصد أن زوجى مثله؟

- لا. لا. أأستطيع التطاول إلى هذه القمة الشامخة.

قالت بسخرية:

- زوجى لا يملك سوى ملابسه الرسمية التى تبعث على الوقار الأجوف لكنه من الداخل -عندما يكون عاريًا من الزيف- إنسان تافه حقير.. عندئذ تبدو لى يا فارس وكأنك سيده. أقسم لك على ذلك!





وعندما خرج كان يطوح فى نشوة، ورطوبة الجو الشحيحة كان لها لمسات حانية شجية، وكم كانت دهشة العسكرى الغارق فى صمته حينما سمع فارس يقول فى نبرات متثاقلة:

- كنت أنوى المبيت هنا.. لكنها رفضت..

رد الحارس وهو لا يكاد يصدق أذنيه:

- ماذا تقول أيها المجنون؟.

توقف فارس عن المسير، وهتف بصوت عال:

- عبد الهادى بك ليس هنا، وهى تحبنى. ليست هذه أول مرة.. إن سعادة المدير ينام على سرير من المخمل.. عندما استقبلت عليه خُيِّل إلى أنى أغوص في النعيم، وصفعه العسكرى صفعة قوية وهو يقول:

- أيها الكلب. هذيانك القذر لا نتيجة له سوى القضاء عليك.

وضع فارس يده مكان الصفعة، ثم رمى الحارس بنظرات ساخرة وقال:

- عنايات هانم قالت لى ذلك، كانت تنادينى باسمى المجرد.. أحبك يا فارس.. ضمتنى إلى صدرها، وغمرت وجهى بالقبلات. انظر!! ألا ترى آثار قبلاتها.. هذه هى ليالى الهنا التى كانت تحدثنى عنها جدتى.. عن الأميرات والملكات.. وفرسان الليل.. أنا فارس الليل.. أنا..

واقترب منه الحارس، ورفع إليه نظرات مستغربة، كان وجه فارس الأسمر محتقنًا عليه طابع البلاهة الطارئة، وبدا فى عينيه وفى ملامحه آثار العربدة والجريمة.

- إذن لم تكن تصلح الأسلاك؟.

- بالضبط!! أنت لا تعرف خدع المحبين لأنك فلاح.. حمار.

وصمت العسكرى برهة، وهتف:

- أيها المجنون. إن رائحة الخمر تفوح من فمك.

وقهقه فارس قائلاً:

- والسجائر أيضًا، والحمام المحشو ورائحة الحبيب.

ولم يستطع الحارس أن يخفى شيئًا عن الضابط النوبتجى، ولم يبد الضابط اكتراثًا بادئ الأمر، وقال وهو يهز رأسه فى شك:

- هؤلاء المسجونون الأقذار يبتدعون الأقاصيص. . ليالى الحرمان تطبعهم بطابع الكذب. . وتجعلهم يسرفون فى أحلام اليقظة. ومع ذلك يجب تأديبه بسبب هذا الهذر السخيف.

وهتف الحارس فى ثقة:

- لكى أعتقد خلاف ذلك.

- مستحيل. .

- الخمر تفوح من فمه. . وكان البيت مظلمًا. . والهانم أوقفتنى خارج البيت. وهى التى طردت السجين الكهربائى الآخر، وسمعت بعض الأشياء المشينة وأنا أدور حول بيت البك لكنى كذّبت أذنى. . والمسجون يعترف. شكله يوحى بأنه اقترف جريمة. . ثم إنه تردد على البيت من قبل. . بسبب النور أيضًا. قلبى يحدثنى أن جريمة وقعت.

وتألقت فى خيال الضابط الشاب صورة «عنايات هانم» بجمالها الثائر، ونظراتها الغريبة الجرئية، وصمتها المحير، حاول أن يتذكر شيئًا عن سريتها وماضيها، وأخذ يفتش فى عقله. أأصدرت عنها شائعات من قبل؟ أهى من أسرة منحرفة؟ أكان هناك شقاق يومًا ما بينها وبين زوجها؟ وهل حاولت فى أى وقت من أوقات أن تنصب الشباك لضابط أو لعسكرى من العساكر؟ لم يحدث شىء من هذا على الإطلاق.

وجاءه صوت الحارس مرة أخرى :

- لاحظت أنها كانت تستدعيه ليلة غياب زوجها حتى لكأن النور لا يصاب بالعطب إلا عندما يسافر عبد الهادى بك .

وتجلت الصرامة على وجة الضابط وهو يقول :

- أتعرف معنى كلامك هذا؟ .

- أعرف .

إنها زوجة المدير .

- النساء الملعونات .

- كلهن؟ .

- نادراً ما تصلح واحدة .

- وزوجة المدير؟ .

- عاهرة .

كانت هذه الكلمة أكبر من أن يتلفظ بها عسكرى تحت رئاسة ضابط كبير يحكم السجن ، وهكذا خيل للضابط أن العسكرى قد تجاوز حدود الأدب ، فهب من خلف مكتبه وهتف فى شىء من الضيق :

- اخرس . . قطع لسانك .

وتمتم الحارس وهو يحنى رأسه فى ذلة :

- أمرك يا سعادة البك لكننا أسرة واحدة وشرف البك الكبير من شرفنا. أيرضيك أن تفوح رائحة الفضيحة فى السجن؟ سينظر إلينا المسجونون نظرة احتقار، ولا نستطيع أن ندوس كبرياءهم، أو نقضى على شغبهم بعد اليوم. . إنها زوجة المدير، وهذا أمر فى غاية الخطورة.

وطواهما صمت معذب محير، وأشعل الضابط سيجارته فى عصبية، وأخذ ينفث دخانها فى غيظ. وكم كان غريبًا، أن تتوارى المشكلة الأساسية، وأن تظهر أمامه مشكلة من نوع جديد، ترى لماذا اختارت سجينًا بالذات لتمارس معه هذه الخيانة؟ ولماذا لم تفكر فيه هو مثلاً؟! وشعر الضابط بمشاعر الغيرة تأكل قلبه. ألسنا رجالاً حتى تبحث لها عن رجل بين أكوام قمامه الرجال؟! وأفاق الضابط على صوت الحارس:

- «لقد أخبرتك فى حينه؛ وليس علىّ مسؤولية بعد ذلك».

وهمس الضابط؟ فى حيرة.

- وماذا نفعل؟.

- هذا هو السؤال.

- أهناك من يجرؤ على إخبار المدير؟.

قال العسكرى وقد شحب وجهه:

- لو شنقتمونى لما استطعت أن أقدم على ذلك.

- وأنا . . مستحيل .

وبرقت عينا الحارس فى خبث :

- عندى فكرة .

- قلها .

- خطاب صغير . . نرسله على عنوان المدير . . نقول فيه زوجتك تخونك مع السجين فلان . وهذه الفضيحة يعرفها الجميع . انقذ شرفك . التوقيع . . فاعل خير .

قال الضابط وأنامله الممسكة بالسيجارة ترتعش :

- لكنه أمر شديد الخطورة .

- حكمة ربنا . . أنسكت؟ لن نكون رجالاً بعد اليوم .

- ألا تعتقد أننا فى حاجة إلى دليل أقوى؟ .

هز العسكرى كتفيه وقال :

- لننتظر حتى يغيب المدير عن بيته ليلة أخرى . أؤكد لك أن النور عند ذاك سيصاب بالخلل ، وسنستدعى فارس ، فارس بالذات .

•••

عندما عاد فارس إلى زنزانته لم تكن آثار السكر قد تركت رأسه بعد وهتف بعد أن أغلق الحارس الباب عليهم :

- زنزانتكم حقيرة تفوح منها رائحة العفن. لا بد وأن الحاج سلامة قد فعلها في المبولة.. لم يعلق «عبد الحميد» على كلامه، بل قال في لهفة:

- أعطنا مما أعطاكم الله.. عقب سيجارة.. قطعة لحم.. أى شيء تجود به نفسك.

- لكنى أكلت هناك.

- ألم تذكرنا؟.

- آه. إن عنايات هانم أنستنى كل شيء حتى نفسى.

- هى عطوفة وكريمة جداً.

وقال فارس في شرود:

- وأحضانها. دافئة تضفى السعادة والهناء كأميرات الزمان.

- أيها المخبول..

- أعرف أنك لا تصدق.. إن فارس مكانه ليس هنا.. لو صلحت الأحوال لصدر مرسوم ملكى بتعيينى مديراً للسجن. هى تحبنى بجنون وتهبنى كل شىء. لقد صعدت سرير البك المدير. وبللته بعرقى. هذه هى الحقيقة الكبرى.

وقطع عليهما الحديث صوت الحاج سلامة الذى أخذ يقول:

- نبيهة بنت حسن عرقات كالعفاريت تتشكل بأشكال عدة..

تارة تظهر فى صورة كلبة، أو قطة، وتارة أخرى سمكة تعوم فى البحر، أو حمامة بيضاء تقف على سارية السجن. وأحيانًا تبدو فى زى امرأة جميلة رائعة الحسن كعنايات هانم. آه يا فارس لقد خدعتك نبيهة بنت حسن عرفات. ألم أقل لكم إنها يهودية بنت يهودى. وإنها وباء أصفر. !.

وتلاشت كلمات الحاج سلامة فى طوفان الأفكار الهائجة التى ثارت فى رأس عبد الحميد، عبد الحميد الذى يعرف الكثير عن النساء، والذى غدرت به امرأة عشقته وعشقها، ووثب عبد الحميد من فوق برشه، وأمسك بذراع فارس وجذبه إليه فى غلظة وقال:

- أتعنى ما تقول حقًا؟؟

ونظر إليه فارس فى رعب، وكأنما الغلظة التى عامله بها قد ردت إليه بعض صوابه، فغمغم:

- آه. ماذا بدر منى؟

- إنك تتهم امرأة جليلة الشأن.

- لا. . لا. . هذا هراء. لم أقل شيئًا.

وهنف عبد الحميد فى ذعر:

- ماذا؟ هل شربت شيئًا.

- كأسين أو ثلاثة. . لا أدرى.

- كيف؟؟

- هى التى أمرتنى.

وزوجها؟؟

- لم يكن هناك؟؟

- وقال عبد الحميد فى ذهول:

- هل أصلحت النور؟؟

- أصبح على ما يرام..

أمسك عبد الحميد بكتفيه، وهزه فى عنف وصرخ:

- قل الحقيقة.. هل فعلتها؟؟

- كان إغراؤها أقوى من أن يقاوم.

- وفعلتها؟

- منذ المرة الفائتة.

- لماذا؟ لماذا؟

- لا أدرى. كل ما أعرفه أننى كنت كالمسحور، ولم أستطيع التراجع.

- يا للمصيبة؟

- وانفجر فارس باكيًا.

ودق باب الزنزانة، وجمدت الدموع فى عينيه، ودق قلب فارس رعبًا لكأنما حان ساعة تنفيذ الإعدام، وصرخ الحاج سلامة دون وعى:

- هى.. هى نبيهة بنت حسن عرفات.

وسيق فارس وحده إلى الضابط النوبتجى، كان يسير مرتعش الساقين وقد طار من رأسه كل أثر للخمر، وقال فارس للحارس:

- لماذا طلبنى؟

قال الحارس ساخراً:

- ألستم أصدقاء؟ يبدو عليك أنك ابن أصل ها.. ها.. البك يريد مصاهرتك.. ووقف فارس بعد لحظات أمام الضابط وانصرف الحارس بأمر رئيسه، ونظر الضابط إليه، كان فارس يرتجف تحت وطأة نظراته التى تحمل ألف معنى، وكاد فارس يصرخ، إنه لا يستطيع احتمال تلك النظرات القاتلة، وفى جحيم الرهبة والخوف انقشعت أحلامه وذكرياته الوردية، وحل محلها عذاب لا يطاق، وهمس فارس فى ذلة:

- سيدى.. أنا طوع أمرك.

قال الضابط فى حزم:

- ليس معنا أحد.. ولما لم يتكلم فارس استطرد الضابط:

- ونعرف كل شىء. كانت عيوننا وآذننا تترقبك خلف النوافذ المغلقة.. ورجالى رأوا المهزلة بكل تفاصيلها. أتفهمنى؟ الذى أود أن أعرفه هو كيف حدث ذلك؟ أقسم بشرفى لو صدقت القول معى لبسطت عليك حمايتى.. أنت تعرفنى يا فارس.. الرجال هنا يعرفون من أنا. لا يهمنى أمرها. فهى امرأة داعرة.. كيف تطور الأمر؟ كيف أوقعتك؟ هذا ما أريده.

وابتسم فارس فى بلاهة، ثم عادت إليه ثقته ووعيه، وتذكر قصة.. آه.. عندما أخذ بثأر أبيه، وكانت أمه وأقاربه وأصدقاؤه يقولون لا نعترف ولو ذبحوك. وظلت هذه الكلمات محفورة فى رأسه حتى بعد أن انتهت المحاكمة وصدر الحكم بإدانته، وبعد أن أجمعت الشهود والقرائن على أنه قاتل، وقابل فارس نظرات الضابط النوبتجى بعينين لا تطرفان أو تزوغان:

- لم أفعل شيئًا.

- لكنى أعرف.

- إنها وشاية.

- ولماذا يشون بك أنت بالذات؟

- اسألهم.

- تخدعنى؟؟

- أقسم بشرفى .

- ليس لك شرف .

أطرق فارس صامتًا، وخفض نظراته فى إصرار بينما قال الضابط :

- أتصر على الإنكار :

- لأنه لم يحدث شىء .

- لكنى رأيتك بنفسى .

قال فارس فى رعب :

- مستحيل .

- بل رأيتك .

- سيدى .

- أتعتقد أننى كاذب؟

لعلها حيلة من حيل المحققين التى يلجأون إليها دائمًا، عندما يحاصرون أحد المتهمين، يواجهونه بعديد من المفآجات والقرائن حتى ينهار ويعترف ولهذا قال فارس :

- أعرف أنك تختبرنى .

- كلماتى واضحة . . أنت تعرف من أنا . . رأيتك بنفسى . . أنا لا أسالك هل حدث أم لا، ولكنى أطلب : كيف حدث هذا؟؟

- سيدى . . ارحمنى . لم أفعل شيئًا . وليس هناك ما أقوله سوى ذاك .

- ستدفع الثمن غاليًا .

- أهو حكم دون إدانة .

وسدد إليه الضابط نظرات قاسية ، وتمتم فى شك :

- سنرى . . تستطيع أن تذهب إلى زنزانتك .

واتشحت أحلام فارس وذكرياته بالسواد ، وأنشب الخوف والعذاب مخالبهما فى قلبه ، ليس هناك شىء اسمه السعادة ؛ لماذا قتل؟ لماذا جاء إلى السجن؟دائمًا وقع بين ذراعى عنايات هانم؟ لماذا هو بالذات؟ دائمًا كالغريق اللاهث بين الحياة والموت ، ويحاول أن يبلغ شاطئ النجاة والأمان فلا يستطيع ، أو يدعو الموت كى يريحه من العناء والشقاء فلا يأتيه ، كل شىء معقد مخيف مر المذاق .

وخلف باب الزنزانة كان عبد الحميد ينتظره وهموم الدنيا فوق قلبه ، والحاج سلامة يهذى بكلمات كثيرة عن الخيانة . . والغدر وحياة العبيد . . ونبيهة بنت حسن عرفات ، مصدر الشقاء والبلاء ، وسبب الكوارث الخاصة والعامة ، والمشاكل الدولية والحروب والأوبئة ، وكل مآسى الوجود .

●●●



هموم كالصخور السوداء تراكمت على قلب فارس، وتراءى له المستقبل ممتلئًا بالغيوم والغبار والعواصف المعربدة؛ ليس الأمر سهلاً كما كان يتصور أو كما أوهمته عنايات هانم، إنها زوجة البك المدير.. الرجل الذى تقوم الدنيا وتقعد من أجله، والذى يلمع على كتفه التاج الذهبى والنجوم. عندما يعرف المدير الحقيقة ستكون الكارثة الكبرى ستقوم القيامة، أيتصور إنسان أن يتطاول فارس السجين الحقير على شرف رجل عظيم؟ أين كان عقلك يا فارس؟ وكيف نسيت نفسك ومركزك، وتجاهلت العيون التى ترمقك من كل جانب؟ ألا ترى يا فارس الجبل الأسود، وسياط الحراس، والرعب الذى يبسط جناحه المشؤمين على عالم السجن.. والحياة التى يتهددها الخطر والفزع من كل جانب!!.. آه.. أين كان عقلك يا فارس؟

وأيقن فارس أن ما حدث ليس له سوى نتيجتين اثنتين أولاهما أنه لن يدخل بينت المدير مرة ثانية ولن يرى الست عنايات،

والثانية أن شيوع الأمر سيكون بداية لمتاعب بعيدة المدى لا يعلم إلا الله عاقبتها .

●●●

دخل المدير السجن مرفوع الهامة ، يحيط موكبه التجلة والوقار ، وصاح أحد الضباط «انتباه» حتى تقف الحركة ؛ وتؤدى التحية ، ويصل البك إلى مكتبه ، وهمس أحد المسجونين فى أذن زميله : البك ماله . أيظن نفسه صاحب الجلالة؟ فارس- يعيش لأمه- مرغ شرفه فى الوحل ، وفى مكان آخر قال أحد الحراس لحارس آخر : كلما تذكرت المرة التى صفعنى فيها المدير ليؤدبنى ضحكت فى قرارة نفسى . كان الأولى به أن يؤدب زوجته العاهرة التى ابتذلت نفسها لسجين لا يساوى خمسة مليمات ، ولا يصح أن يكون خادمًا لها . هيه . ماذا أقول؟ دنيا . . مولد وصاحبه غائب . وفى حجرة استراحة الضابط همس ضابط وهو يلتفت يمنة ويسرة . . الزوج آخر من يعلم . يا لها من حكمة رائعة . البك دخل السجن منتفخ الأوداج كالديك الرومى . . يحسب نفسه سلطان زمانه . أما واعظ السجن ، فقد هز رأسه فى أسف وحسرة ظاهرة ، وتمتم : النساء ناقصات عقل ودين . . أتذكرون النسوة اللاتى فتنّ بيوسف عليه السلام؟ لقد قطعن أيديهن فى ذهول حينما وقعت أبصارهن على جماله البارع ، وكادت له زوجة العزيز حتى قذفت به إلى السجن بريئًا مظلومًا . . لكن زوجة

المدير - عليها اللعنة - فاقتها مكرًا ودهاء . . لقد أغوت شابًا داخل السجن . . لم تقف الأسوار أو الأسلاك الشائكة، ولا نظم الاتصال القاسية حائلاً دون تحقيق نزواتها الشيطانية . إذا كانت هناك نصيحة أقدمها لكم فهى لتخرج عن كلمتين اثنتين : احذروا النساء .

ومال أحد السجانة الممرضين على أذن طبيب السجن، وأسر إليه بالنبأ الذى انتشر وذاع، وملأ أروقة السجن، وغياهب الزنازين، فما كان من الطبيب إلا أن هز رأسه دون مبالاة وقال :

- الناس يخطئون دائمًا .

- لكنها زوجة المدير يا سعادة البك .

- وماذا فى ذلك؟

- خطأ جسيم .

- كلكم بشر . . عند تشريحى للجثث لم أجد أى فارق عضوى بين عظيم وحقير .

- المفروض أنها بنت ناس أصلاء، ونشأت على قيم فاضلة وخلق مستقيم .

- المفروض شىء . . والواقع شىء آخر .

وحاول الممرض أن يتكلم، لكن الطبيب قال فى نبرات تؤكد عدم رغبته فى مواصلة الحديث :

- هل حجرة العمليات جاهزة؟

- أجل . .

- لنبدأ بعملية الفتق الإربى للمسجون «عوض الله» .

وخرج فارس إلى الجبل شاحب الوجه زائغ النظرات، كانت عيون المسجونين ترشقه من كل جانب، لكأنها سهام تصيب قلبه الحزين، وهمسات كثيرة تدور، وفارس ليس لديه أدنى شك فى أن الألسنة تلوك سيرته وتحكى قصة الخطيئة مع زوجة أكبر رأس فى المنطقة، ولم يقف عند نظرات المسجونين وهمساتهم، بل كان الحراس يأتون ويقيسون فارس بنظراته النارية، ويصيح أحدهم: صباح الخير يا فارس «باشا» وتهوى هذه الكلمات على أذن فارس كالسياط . . أهو باشا؟ . . إن السخرية واضحة لا تحتاج إلى إمعان فكر، هل - لأنه عشيق زوجة المدير - أصبح يحمل لقبًا جديدًا يرفعه من طبقة المعذبين والمحتقرين إلى الطبقة الراقية؟ أمن المعقول أن تتحول الخطيئة إلى قوة سخرية رافعة تنشل الإنسان من المستنقع الآسن إلى عرش التكريم والاحترام؟

وأتى الشلقامى مهرولاً، كانت عيناه تبحثان عن شخص بعينه، وحينما رأى فارس وهو يضرب الصخر الأسود بمعوله اقترب منه وقال بنغمة ممطوطة:

- فارس.

- أفندم.

- لا والنبى ولد حليوه.

ولمّا لم يجب فارس، واستطرد الشلقامى:

- اسم على مسمى يا ولد.

ثم رفع الشلقامى يده وصفع فارس على قفاه فى ود ومحبة يبدو فيهما سيما التقدير، وبرغم تضايق فارس إلا أنه اغتصب ابتسامة باهتة وتمتم:

- لماذا؟ لماذا يا جاويش شلقامى.

- لأنى أحبك.

تطلع إليه فارس فى شك وألم:

- تحبنى؟

- أقسم بشرفى.. لك فى قلبى منزلة كبيرة.. أنت تعرف هذا يا مغفل.

وتحسس فارس قفاه وهو يقول:

- لكن..

- لكن ماذا؟ إن ضربى لك معناه الإعجاب.. وأنت لا تجهل السبب.

واقترب الشلقامى منه، وقال وهو يسدد إليه نظرات ذئب:

- لكن قل لى . . كيف انفتحت لك أبواب النعيم . ! .

- لا أدرى ماذا تقصد؟

- أيها اللئيم . . كنت أحسبك درويشًا من الزاهدين فإذا بك شيطان رجيم . . ومع هذا فأنا أحترم الرجال .

وهتف فارس وهو فى ذهول :

- وكيف يكون الإنسان رجلاً؟

وقهقه الشلقامى فى خبث :

- عندما يعرف الطريق .

- كيف .

- عندما . . يا جاهل . . أتستغفلنى .

وعاد فارس إلى معوله يضرب الصخر فى قسوة ، يريد ا ' يريق ضيقه وأساه ، وينسى العذاب النفسى الذى يعتصر روحه ، والشلقامى واقف وراءه يدقق فيه النظر ، وتموج برأسه أفكار عديدة ، خطا الشلقامى نحوه مرة ثانية ، وأمسك بكتفه وهو يقول :

- لك تخبرنى . . كيف دخلت الجنة؟

- دعنى أرجوك . . أنت فى جحيم . . أمن المعقول أن يكون هنا جنة؟ إنى أنتظر العام الباقى من العقوبة هنا حتى أفر بجلدى . .

آه . . لو خرجت حيًا من عندكم ! ! هندئذ أستطيع أن أقول أنى ولدت من جديد . . آه لو تعود الأيام . . ليمت أبى ، وليقتلوا أمى وأخى والدنيا كلها ، لم أشهر سلاحًا فى وجه أحد حتى ولو فعل بى أبشع ما يفعله بشر .

وعادت نظرات الذئب تطل من عينى الشلقامى فزمجر :

– لم تجب على سؤالى يا فارس .

– ارحمنى .

– لم ترحم نفسك .

– تلصقون بى جريمة لم أرتكبها .

– لكنى أعرفك؟

– تعرف فقط أنى قاتل؟ سجين .

– وهذا يكفى . . أهناك شىء أفظع من ذلك؟

– أجل . . حينما يتهم الناس بريئًا .

– البراءة ليس لها وجود هنا .

– وهذا ما يعذبنى يا جاويش شلقامى .

– أتخدعنى؟

– أقسم . . لا .

- أجب على سؤالى . . قد أحميك مما ينتظرك .

- وما فائدة أن تعرف؟

- تمامًا كمن يقول : وما فائدة أن تأكل .

- ليست الفضيحة غذاء .

- فارس . . تكلم .

تطلع فارس حواليه ، كانت معاول المسجونين توقفت عن العمل ، وعدد غير قليل من الرجال الأشقياء قد حاول الاقتراب ، وسهام العيون ترشقه من كل جانب وكأنها تحاصره مخافة أن يلفت ، والفضول يرتسم على الوجوه المغبرة .

وهتف فارس وقد تبللت عيناه بالدموع :

- ألا ترى المسجونين؟؟ .

- ماذا؟ .

- إنهم ينظرون!! .

- وماذا يهمك ما دمت بريئًا؟ .

قالها الشلقامى فى سخرية مُرة ، فأردف فارس :

- هذا عذاب .

- لك الفجر يا مخبول .

- هذا سيؤدى بى إلى الجنون . . دعنى . . ارحمنى وحياة أولادك .

وانتفض الشلقامى، وتوجه صوب الرجال حاملى المعاول، وصرخ فيهم كى يعودوا إلى أعمالهم وإلا فالكرباج.

• •••

كان فارس يتلهف تلهفًا حارقًا على العودة إلى زنزانته، يريد أن يهرب من النظرات القاتلة، والهمسات المشينة، أصبحت الزنزانة هى المكان الوحيد فى هذا العالم الذى يأوى إليه فى رغبة جامحة، هنا- فى الزنزانة- يجد الهدوء والعزلة النسبية، وقلب عبد الحميد الذى ينثبق منه الحنان والحب، وحيث يستلقى الحاج سلامة مفتوح العينين يبحث فى سماء عالمه المتخيل عن السلام والإيمان، وحيث نبيهة بنت حسن عرفات تشغل الجانب الأكبر من أحاديث، وحينما عاد إلى زنزانته متعبًا مكدودًا سمع الحاج سلامة يقول:

- رأيت حلمًا عجيبًا.. نحن الثلاثة نركب زورقًا.. والظلام دامس.. والرياح عاصفة، والغريب أن وجوهنا كانت سوداء.. مثل الزنوج تمامًا.. كان البحر واسعًا لا شطآن له ولا أعماق.. وجاءت نبيهة بنت حسن عرفات تمشى على الماء، وسرعان ما انطلق منها الريح الأصفر، ثم دفعت الزورق فى عصبية، وهكذا غرقنا، وكتم الماء أنفاسى حتى أوشكت على الموت، وهكذا صحوت مذعورًا.

وقاطعه عبد الحميد فى سخرية:

- لا شك أنها أزمة ربوية فى صدرك.

ولم يكن فارس يستمع إلى حديثهما، وهتف فجأة:

- عبد الحميد.

- نعم.

- أنقذنى.. ماذا أفعل؟ أصبح الجميع يعرفون الحقيقة لم يجد إنكارى نفعًا..

- كان غباء منها أن تسقيك خمرًا.. لكن ماذا أقول؟ إن لحظات الاندفاع والتهور كلها عماء وجهل وحماقة.

- لا لوم.. فات وقته نحن نبحث عن حل يا عبد الحميد..

- أنا خائف.. حياتك مهددة.

- أعرف.

- يجب عليك يا فارس أن تبلغ النيابة حتى تتقى الأخطار المتوقعة.

- المدير لم يعرف شيئًا بعد..

- قد تقترح النيابة نقلك إلى سجن آخر.. ليمان طره مثلاً!.

ولم تنجل الوساوس عن قلب فارس، تعبت رأسه من كثرة التفكير والظلام من حوله ممتلئ بالهول والأشباح، ونظراته الكليلة المكدودة لا ترى بصيصًا من النور، وراوده إحساس عميق بأنه كالغريق الذى يقترب من الموت بسرعة دون أن يجد له مخلصًا.



ذهب عبد الهادى بك إلى بيته كالمجنون، لقد تلقى أقسى ما يمكن أن يتلقاه طول حياته، إن مرضه وآلامه الشخصية السابقة تعد أمرًا تافهًا إذا ما قيست بالصدمة التى هبطت عليه وهو يتسلم خطابًا من مجهول يخبره فيه بالخيانة الزوجية التى لم تكن تخطر له على بال، عنايات أسلمت نفسها لسجين تافه اسمه فارس، ووقع البك فيما يشبه الغيبوبة، ثم شعر بجحيم يشتعل فى صدره، لكأنما آلام الدنيا وأحقادها قد تمازحت وأغرقته فى طوفانها الطاغى.. أية كارثة أبشع من ذلك؟!.

ودوى عاصف يصم أذنيه، وصور المرئيات تختلط وتشع تعاسة ما بعدها تعاسة تتسلل عبر ناظريه إلى كيانه كله فترعشه، لا شىء بعد ذلك يمكن أن يسمى كرامة أو سلطة، فقد استطاع سجين حقير أن يلوث شرفه، ويسخر من كبريائه، وكان التغير الكبير الذى طرأ على عبد الهادى بك تغيراً عنيفًا شاملاً، أفقده العقل والتأنى والتصرف بحكمه ولم يكد يؤوب إلى حجرته حتى هب واقفًا ثم

أسرع بالعودة إلى السجن وفى مكتبه دق الجرس وطلب الشلقامى على الفور، وجاء الشلقامى.

- لقد طلبتك يا شلقامى لأمر عصيب.

- أنا طوع أمرك.

- وصمت برهة ثم هتف:

- أحقًا حدث ذلك؟!

- ماذا يقصد سعادة البك!

دقق البك النظر فيه، ثم هتف بصوت يجرحه البكاء المكتوم:

- ألا تعرف!؟

شحب وجه الشلقامى، وساده الارتباك، وتمتم:

- ماذا أعرف؟

- مرسل الخطاب يقول: الجميع يعرفون.. وهو يؤكد أن فارس فعلها ولما لم يجب الشلقامى، استطرد عبد الهادى بك قائلاً:

- إذن فهى شائعة صحيحة.. لكن لماذا لم تخبرنى من قبل؟

- لم أستطع.

وجفف عبد الهادي بك دمعة انحدرت على الرغم منه وهو يقول:

– عندك حق . . لكن ما جزاؤه .

– جزاء العبيد حينما يتطاولون على أسيادهم .

– لم يكن مجرد تطاول . . بل تجرأ وداس حرمة سيد الناس .

– إنه حيوان قذر . .

– سأعرف كيف أذيقه العذاب ألوانًا .

– هذا لا يكفى يا شلقامى؟ لقد ارتكب خطيئة لا تغتفر .

– سأجعل كل لحظة من حياته هنا جحيمًا لا يطاق .

فدق عبد الهادى بك المكتب بقبضة يده المتشنجة وهتف بصوت كالفحيح :

– لقد لوث شرفى يا مجنون . أتعرف معنى ذلك؟

– حسنًا . . ننقله إلى زنزانة التأديب . . ونضع الأغلال فى يده من الخلف ، ولا نعطيه من الطعام والشراب إلا التافه ، ولن تمر شهور حتى يصاب بالسل .

وقهقه البك فى جنون :

– شهور؟ إن الانتقام الذى أريد انتقام عاجل ومدمر . أتظن أننى أستطيع الصبر لشهور؟ لو سار الأمر كما تتصور لفاجأتنى نوبة قلبية وأسلمت الروح فى أسبوع واحد . . بل فى لحظات .

طأطأ الشلقامى رأسه وقال :

- أنا تحت أمرك .

- أنا لا آمرك يا شلقامى . . لتنس الآن أننى مدير وأنت سجان . . نحن منذ اللحظة أصدقاء . أنا أستنجد بك لترد لى اعتبارى وكرامتى ، وستجد فى المستقبل الجزاء الأوفى . هل تفهمنى ؟

- العفو يا سعادة البيك . أنت سيدى وتاج رأسى .

وأشعل سيجارة بيد مرتعشة ، وهتف فى تصميم :

- لقد أصدرت عليه حكمى بالإعدام .

- القتل ؟

قالها الشلقامى فى شىء من الذعر ، فرد المدير :

- الجزاء من جنس العمل يا شلقامى ، أنا لا أظلمه . . أينكر أحد أنه أتى فعلاً منكرًا ، وكبيرة من الكبائر ، جزاء الزانى الموت . هذه هى العقوبة الرادعة فى رأيى وليس مائة جلدة لو فعلها فارس مع بائعة يانصيب فقد تغتفر له . . أما مع حرم المدير فهى بشعة ، بشعة يا شلقامى ، وأنت رجل فلاح تعرف العرض وتقدر قيمته . .

- الإعدام يا سعادة البك .

قالها فى استسلام ، ثم تمتم :

- ماذا لو حدث تحقيق؟

أيها الأبلة . . أنا هنا كل شيء . أنا القانون . . أنا المجنى عليه . . لا راد لأوامرى . . حولنا أسوار سميكة مغلقة لا يتسرب منها شيء . . وأنا كفيل بأن أقضى على شك أو شبهة .

وعاد الشلقامى يقول :

- والطبيب؟

سيكتب التقرير الذى أمليه عليه . ثم إن ضربتنا ستكون محكمة لن يكون فيه إصابات . سنقتله بالسم .

- السم؟

-أجل . . بعد أن أضربه على وجهه بحذائى .

اغتصب الشلقامى ابتسامة باهتة ، وهتف فى حماس مفتعل :

- عشت يا سعادة البك .

وتنفس البك الصعداء ، ثم جفف العرق المتقاطر على جبهته ، وتمتم :

- أما هى فلى معها شأن آخر .

وأدرك أنه ما كان يجب أن يتفوه بعبارته الأخيرة أمام الشلقامى ، فعاد يقول :

- يجب أن تمضى الأمور كما رسمنا، حذار أن يعرف أحد شيئًا، كن رجلاً يا شلقامى حتى النهاية، وبعد أن تنتهى من هذه المشكلة، ستمضى الحياة على ما يرام، ونستطيع بمرور الوقت أن ننسى أن صعلوكًا قد أهاننى فى ساعة الزهور الإنسانى الأجوف، فى لحظة من لحظات الضعف.

هز الشلقامى رأسه وهو يقول:

- أنا تربيتك يا سعادة البك.. ستجد الشلقامى - طول العمر - الوفى المخلص، وسأظل رجلاً ما دمت معك.

وشعر البك بكثبان الغضب تتزايل عن قلبه الحزين، وعاد إلى بيته فى هدوء مصطنع، وإن بقيت صورة عنايات هانم، وحول خصرها ذراعان سمروان ملوثان، تفرض سلطانها على مخه المتعب المشوش.

وعلى مائدة الطعام، سدد إليها نظرات ملتهبة وقال فجأة:

- أتعرفين فارس؟

وصمتت برهة، وكأنما استسلمت لتفكير عميق، وبدت كأنها تستجمع أفكارها وتتذكر، ثم همست.

- من فارس؟

- ذلك السجين الـ...

- لا أفهم .

- الكهربائى .

- أوه . . تقـــصـــد ذلك الرجل الذى أصلح خلل النور ذات مساء .

قال وهو يرشقها بنظرات كالسهام :

إنه هو . . لكنه لم يصلح خللاً ، بل أفسد ما لا تستطيع أكبر قوة في ا لوجود أن تصلحه .

قالت وهى تتصنع الغباء :

- بل كان كهربائيًا ماهراً .

- فى هذه المرة يا عزيزتى لن تنطلى علىّ حيلك .

- ما تعنى؟

ووثب من فوق كرسيه وهتف وقد امتلأت عيناه بالدموع :

- لقد لوث فراشى .

- عبد الهادى ! ! .

- إنها الحقيقة المرة التى ستحاولين طمسها ولن تستطيعى .

- تعقل يا رجل .

- وشت الخمر بالخيانة أيتها الزوجة الوفية .

قالت وقد تغير وجهها :

- هل أصابك شىء؟

- أصابنى ما يصيب صاحب العرض المثلوم عادة .

- لا أحتمل هذا الهذر السخيف .

وفى هدوء غريب قال :

- الآن تستطيعين أن تذهبى إلى أبيك المبجل .

- ماذا؟

- أنت طالق . .

لم تستطع أن تجد دموعها ، وأمسك بمفرش المنضدة فى قبضتيها المتشجتين وصدر عنها أنين مكبوت ، فهتف :

- وما جدوى الدموع؟ لقد فات الأوان .

وعاودتها نوبة كبرياء طعينة وقالت :

- لست آسفة . . إنه يوم الخلاص .

- الخلاص؟

- أجل .

ودون أن يدرِى تناول طبقًا ممتلئًا بالأرز، ثم قذفها به وهو يصرخ:

- يا عاهرة. ستعيشين بقية حياتك يجللك العار. وتنظر إليك العيون فى احتقار. أنت طالق.. طالق.. طالق. دون عودة. وثقى أنى سأنتقم منك ومنه. لست بالذى يقبل الإهانة صامتًا.. أنا عبد الهادى، وأنت تعرفين..

حاولت أن تتكلم. لكنه لم يمكنها من ذلك، بل أمسك بذراعها، وجرها صوب الباب. ثم قذف بها إلى الشارع، وأغلق الباب، وعاد ليبكى بمرارة قاتلة.





وذات صباح حزين قالوا إن فارس مات .

وزعموا أن السجان ذهب ليفتح زنزانة التأديب فى الثامنة صباحًا ، فوجده ملقيًا على الأرض الباردة ، وقد فارق الحياة بعد أن تقيأ دمًا .

وسرى النبأ بين السجناء بسرعة البرق ، وتناقلته فى حسرة وشك ، وصرخ عبد الحميد دون وعى والدموع تغرق وجنتيه :

- فارس لم يمت . . بل قتلوه .

تمتم الحاج سلامة شاحب الوجه مذهولاً :

- حاكموا نبيهة بنت حسن عرفات . . ذلك الوباء الأصفر .

وتبادل ضباط السجن نظرات ذات معنى ، لكن واحدًا منهم لم يستطع أن يفصح بما فى ضميره ، وتهامس الحراس ، لكن واحدًا لم يستطع أن يسمع همساتهم ، وتمتم واعظ السجن : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧]، أما الشلقامي فقد قال وقلبه يخفق في رعب :

- ليس فارس أول سجين يموت .

وبرز من خلفه عبد الحميد بعينيه المحتقنتين وهتف في إصرار جنوني :

- لن يذهب دمه هدراً .

والتفت إليه الشلقامي كمن لدغته حية :

- ماذا تقصد أيها الكلب .

- أنت تعرف .

- الأعمار بيد الله يا أبله . من يدري ! ! قد تموت غداً وقد تموت وأنت واقف الآن . . دنيا . إنكم لا تعرفون طريق الإيمان . الموت حق .

- لكن القتل ظلم بيّن .

أمسك به الشلقامي، وشدد قبضته على ذراعه وهتف والشرر يتطاير من عينيه :

- عبد الحميد . . احذر . . وإلا ضعت .

وكانت القنبلة التي انفجرت في السجن ذلك اليوم هي أن

الطبيب امتنع عن تشريح الجثة وطلب عطلة عارضة، وقبل أن يرحل أرسل إشارة إلى الطبيب الشرعى كى يتكفل بالأمر، ولم تجد أوامر المدير ولا توسلاته فى إنهاء الأمر؛ فقد أصر الطبيب على موقفه، وترك السجن وخرج.

وبعد يومين جاء تقرير الطبيب الشرعى:

فارس مات مسمومًا..!!

إنها جناية قتل.

وسرى النبأ كالنار فى الهشيم، وجاءت النيابة تتقصى الحقائق، وظل التحقيق ثلاثة أيام كاملة، واستطاعت زوجة المدير أن تخرج عن صمتها ودهشتها وذهولها، وقالت وهى تضغط على مخارج الحروف:

- زوجى قاتل.. وأنا أعترف أننى أسلمت نفسى لفارس.

ونزل الاعتراف كالصاعقة، وتردد صداه فى أروقة السجن، وأمسك المحققون بأطراف القصة كاملة، وخاصة عندما انهار الشلقامى، وقال من بين دموعه المتقاطرة:

- ما ذنبى؟ أنا عبد المأمور!!..

وحجز عبد الهادى بك والشلقامى فى أحد سجون القاهرة رهن التحقيق.

وعادت الحياة إلى السجن من جديد، الذاهبون إلى المحاجر السوداء ييممون وجوههم شطرها كل صباح، ثم يعودون في المساء منهوكي القوى، ضائعي الأحلام.. ومدير جديد يدخل السجن منتفخ الأوداج، رافعًا رأسه في كبرياء، وفي الليالي السوداء، يجلس السجناء القرفصاء، يتحدثون عن ذكرياتهم وعن زوجة أحد المديرين الحسناء، تلك التي عشقت سجينًا، فدفع حياته ثمنًا للحظات الغرام القصار.. وعن الباشسجان عبد المأمور وعن عالم العبيد، العبيد والضياع الرهيب..

[تمت]

نجيب الكيلاني

قصة «ليل وقضبان»
للدكتور نجيب الكيلانى

بقلم : عبد المنعم عواد يوسف

القاص المتمكن من ناحية فنه، العارف بدقائق صنعته، هو الذى يستطيع أن يمسك بخيوط عمله جميعًا، ببراعة وحذق، فلا يجعل خيطًا يفلت منه؛ أو يختلط بخيط آخر فيحدث اللبس والاضطراب.

والدكتور نجيب الكيلانى، قد استطاع فى قصته التى تحت أيدينا «ليل وقضبان» أن يفعل ذلك بمهارة تدعو إلى الإعجاب.

فعلى الرغم من أن القصة بها أكثر من خط، وكل خط منها كاف لتقديم رواية كاملة، فقد استطاع الأديب الشاب أن يقدم لنا قصة متماسكة واضحة المعالم، دون أن تتداخل الخيوط، أو تضطرب أطراف العمل الفنى بين يديه.

وإن استعرضنا استعراضًا عاجلاً لجوانب هذا العمل الخصب لاتفقنا على مدى المقدرة التى استطاع بها «نجيب» أن يقدم لنا كل هذا العالم المضطرب خلال هذه الرواية القليلة الصفحات؛ بكل ما فيه من أحداث متلاحمة، وشخصيات متباينة المزاج، مختلفة النزعات، متفرقة السلوك.

هناك مثلاً: «الخط السرى» المتمثل فى أسرة «عبد الهادى بك»

مدير سجن أبي زعبل؛ في إحدى سنوات ما قبل الثورة، والتي تتكون منه ومن زوجته «عنايات هانم» وخادمتها الصغيرة. الزوج المريض بمجموعة من الأمراض، والعاجز جنسيًا، إلا إذا استعان بالحقن المنشطة، والزوجة الشابة ذات الاثنين والثلاثين ربيعًا، والتي تتفجر بالجنس والحيوية وما يدب بينهما من خلافات ومشاكل الزوج بعقده وأمراضه، والزوجة بنزعاتها وأحلامها، ومشاعرها المتأججة. الزوج الذي يحاول أن يستر رجولته الضائعة بطبقة من السيطرة والعناد، سرعان ما تنكشف عن ضعف واستسلام وتمزق داخلي عنيف بمجرد أي نزاع عائلي يدب بينه وبين زوجته، والزوجة «عنايات هانم» التي يفلت منها العيار، بعد طول استسلام، فتسقط في أحضان الرذيلة في الخفاء، والتي تمثل- ظاهريًا- دور الزوجة المخلصة خضوعًا لتقاليد أسرتها الصارمة، فتبدو في مظهر الزوجة المحبة لزوجها، المتفانية في خدمته، الحريصة على شرفه واسمه؛ بينما هي في الخفاء تقوم بدور المرأة الخائنة كأبشع ما تكون الخيانة. وأشنع ما يكون السقوط.

وخط آخر يتمثل في هذه المجموعة من السجناء: فارس القاتل أخذًا بثأر أبيه، وعبد الحميد تاجر المخدرات، والشيخ سلامة قاتل أخيه، بإيعاز من زوجة الأخير، كما نفهم من ثرثراته، والعلاقة الوطيدة التي تربط بين هؤلاء الثلاثة، وإن كانت الرابطة بين فارس وعبد الحميد تبدو أكثر وثوقًا، وتلك التي تربط بين الاثنين وبين

الشيخ سلامة. الهائم فى الملكوت تتربع على عرشه «نبيهة بنت حسن عرفات» اليهودية بنت اليهودى- على حد تعبيره- والتي تهب معها دائمًا الخيانة والوباء والريح الصفراء؛ والتى هى وراء كل مصائب العالم أجمع. هذا الخط المتمثل فى هولاء السجناء الثلاثة، قد استطاع الدكتور نجيب أن يقدمه في صورة دقيقة: المشاعر التى تضطرم بها جوانحهم، الآمال الضائعة، والأحلام الميتة، والآلام النفسية التى تطحنهم طحنًا، لحظات الضعف التى تكشف عن رخاوة بنائهم النفسى، والتى سرعان ما تفسح الطريق لسيول الدموع.

وهناك خط ثالث يتمثل فى الحياة داخل السجن، وما يعانيه السجناء من صنوف الذل والمهانة، وجبروت السيد المدير؛ وأداته الباشسجان «الشلقامى»، وما يصدر عن المساجين من شغب، وردود فعل هذا الشغب على الحياة داخل المستعمرة الكئيبة. استطاع الدكتور نجيب أن يصور الحياة داخل السجن، بجانبيها المادى والنفسى في صورة ناطقة، بحيث أشعرنا أننا نعيش فعلاً مع المساجين، نقطع معهم الأحجار. ونأكل معهم الفول المدمس والعيش الأسود، ونثور معهم على الظلم داخل السجن ثم نرتد معهم فى نهاية اليوم الزنزانات الرطبة، حيث يرقدون على الأبراش القذرة المهلهلة يهيمون خلف أحلامهم فى الخلاص القريب، وحيث يصارعون آلامهم النفسية حتى يدب النعاس إلى الأجفان المقرحة من كثرة ما ذرفت من دموع فى ليل أبى زعبل الكئيب. «كل

مسجون له عشرات الأحوال. إنه يضحك ثم يبكى، ثم يغنى، ثم ينتحب، ويسكن فى ارتياح ثم تفاجئه نوبة صرع قاسية، أغلب المسجونين هكذا يعيشون حياة متقلبة متغيرة، تثير العجب».

وهناك أيضًا الخط الذى يتمثل فى العلاقة الآثمة التى نشأت بين عنايات هانم حرم المدير، وبين فارس السجين؛ كيف بدأت هذه العلاقة، وكيف تطورت، وكيف انتهت أحاسيس عنايات هانم وهى تقارف الإثم لأول مرة، ثم استمرائها لطعم الخطيئة ومذاقها الحريف - على حد تعبير الدكتورت نجيب- كيف كانت مترددة أولاً ثم كيف أصبحت تقدم عليها بعد ذلك فى لذة نهمة؛ ورغبة عارمة واطمئنان وثقة، وفارس البائس المحروم الذى فتحت له الجنة أبوابها ذات ليلة، كيف عاش أولاً نهبًا لإحساسه بالإثم، ثم كيف انحلت عقدته أخيراً، فتجاوب مع عنايات هانم وأقبل عليها إقبال الجائع، يقدم إليه فجأة طعام دسم لذيذ، وأخيراً ينكشف أمره، يكشفه بنفسه وهو واقع تحت تأثير الخمر الذى جرعته إياه عنايات، ويشيع الأمر فى السجن، ويصل صداه إلى كل سمع، وتفوح الرائحة، وتصل إلى أنف البك مدير السجن، الذى يقذف يمين الطلاق فى وجه زوجه، ويدبر لفارس جريمة قتل، سرعان ما تنكشف خيوطها هى الأخرى فيوقف المدير وأداته فى تنفيذ الجريمة الباشسجان الشلقامى، ويحل بالسجن مدير جديد، وتبدأ حلقة من سلسلة حياة المساجين.

هذه هى أهم خطوط هذا العمل الفنى، تمكن الدكتور نجيب من

عرضها جميعًا على درجة واحدة، من حيث دقة العرض، وروعة التصوير، لم يطغ خط منها على الآخر ولم يتغلب جانب من جوانب القصة على الجوانب الأخرى، وإنما سارت جميع الخطوط فى طريقها المرسوم بدقة؛ تكمل بعضها بعضًا، ويكشف كل جانب عن معميات الجانب الآخر.

والسؤال الآن: إلى أى حد وُفقَ الكاتب فى تصوير بيئة السجن بوجهيها المادى والنفسى؟ إلى أى مدى نجح فى تصوير البيئة المادية «الخارجية» الممثلة فى الجبل الأسود والزنزانات، وما يضطرب داخل السجن من حياة؟ ثم إلى أى مدى نجح فى تصوير البيئة النفسية «الداخلية»؟ إلى أى حد كان موفقًا فى تصوير نفسية السجناء، وما يضطرم بداخلهم من نزعات، وما تجيش به نفوسهم من آمال ورغاب؟.

والواقع أن الدكتور نجيب قد استطاع أن يرسم صورة واقعية دقيقة لكل من البيئة المادية والنفسية على السواء.

أجل لقد تمكن أديبنا الشاب من رسم صورة صادقة لحياة السجناء من صبيحة اليوم حتى نهايته: كيف يعملون؟ وكيف يأكلون؟ وكيف ينامون، وأيضًا كيف يحلمون؟ كما استطاع أن يدلف إلى أعماق نفوس هؤلاء المساكين فيصورها بدرجة تجعلنا نتعاطف معهم ونشعر نحوهم بالرثاء، فهم ليسوا أكثر من ضحايا بريئة لظروف أكبر منهم تتحكم وترسم مصائرهم.

ولم يكتف الدكتور نجيب بتصوير حياة المساجين، وإنما انتقل إلى داخل مسكن المدير الخاص، حيث يعيش هو وزوجته «عنايات هانم» وخادمتها. واستطاع أن يرسم صورة واضحة لهذه الحياة، بحيث أشعرنا أنه لا فرق بين الحياة فى هذا المنزل وبين الحياة فى داخل السجن، لا فرق بين هؤلاء وأولئك، فالجميع مسجونون: هؤلاء داخل أسوار سجنهم الصماء، وهؤلاء داخل أسوار نفوسهم المعتمة.

والآن، آن لنا أن نقف وقفة قصيرة عند كل شخصية من شخصيات الرواية لنرى إلى أى مدى قد استطاع الكاتب أن ينجح فى تصويرها:

ولنبدأ بشخصية «عبد الهادى بك» مدير السجن، إنه السجن، إنه يصفه وصفًا خارجيًا، فيقول: «إنه لم يكن خفيفًا نشطًا، وإن تصنع ذلك». ثم يأخذ فى وصف بطنه المنتفخ، والثنيات التى تخطط عنقه، والشحم الذى يتكاثف حول عينيه، ويقول إنها «كلها توحى ببطء حركته، وتثير الشك فى أن الأميرالاى عبد الهادى بك مدير سجن أبى زعبل كان يومًا ما شابًا عسكريًا أنيقًا يلفت النظر». فإذا تركنا هذه الصورة الخارجية، وأنتقلنا إلى صورته من الداخل، نجد أن الكاتب يمهد لذلك بقوله إنه «لولا إحساسه الداخلى بأنه سيد، وأنه يستطيع أن يفرض العقاب ويطلق الشتائم ويوقع على بعض الأوراق بإمضائه ويتسلم مرتبه آخر كل شهر، لولا هذا لبدت حياته الرتيبة الجافة، شبه الفارغة، كحياة السجناء تمامًا»، ورغم الجبروت الذى كان يعامل به رعيته - السجناء - حتى لقد لقبوه بوحش

السجون المصرية، فإنه كان فى قرارة نفسه ضعيفًا منهارًا حتى ليصل به الأمر فى مرة من المرات إثر مشادة بينه وبين زوجته إلى البكاء، ولقب «الوحش» الذى كان يطرب حينما يسمعه منسوبًا إليه، ملأ نفسه رعبًا حين وجهته إليه «عنايات هانم» فى ثورة غضب، الرعب نفسه الذى طالما ملأ به قلوب الآلاف من المسجونين.

و«نجيب» يعرض لضعف عبد الهادي بك فى أكثر من موقف، فعندما تصرخ زوجته في وجهه «أكرهك» تنغرس هذه العبارة فى قلبه كخنجر مسموم، ويتساءل فى فزع «ماذا لو هربت منه؟» ويأتى الجوانب فى شكل مونولوج داخلى «لو حدث هذا لقتلها، أجل القتل أخف عقاب لمن يطعنه فى كبريائه وشرفه.. يفكر فى القتل كحل لمشكلته، تمامًا كأى مجرم من أعماق الصعيد. ونواحى التفسخ الداخلى فيه كثيرة، فهو خلو من القيم، يقبل الرشوة ويبرزها بأنها حقوق مفروضة، فهو يبيع للمحتاجين من المساجين خدماته نظير مبلغ بسيط، ولن تخسر الدولة- على حد قوله- شيئًا. بل إن انهياره النفسى ليبلغ حد الشناعة حين يدبر لمقتل فارس بعد أن تأكد من اعتدائه على شرفه وكرامته. والواقع أن الدكتور القاص قد دقق فى رسم هذه الصورة ذات الوجهين، الخارجى والداخلى، لمدير السجن بكل ما فيه من ضعف وبكل ما بداخله من تمزق.

أما «عنايات هانم» فالكاتب يصورها فى صورة المرأة الحسناء، المتفجرة بالسحر والحيوية، فإذا ما نظرنا إليها من الزاوية

الاجتماعية، فهى سليلة أسرة عريقة؛ تتمسك بالتقاليد؛ وعندما نالت «البكالوريا» أرادت أن تتم تعليمها ولكن أباها آثر أن يمضى فى إجراءات الزواج، فالمرأة فى نظره مكانها المنزل، ومن جهة أخرى فقد كانت تميل إلى شقيق زوج أختها المهندس، غير أن مجلس العائلة آثر عليه عبد الهادي بك، الذى تشاء الأقدار أن يكون عاقراً فتحرم من أن يكون لها أولاد تهدهدهم وتناغيهم.

تلك عنايات هانم من (الخارج)، أما عنايات هانم (من الداخل) فقد رسم الكاتب صورة دقيقة لها، فهى قد استسلمت لمصيرها كما «يرتضى المذنب مصير السجن»، وهى تعيش حياة زوجية يسودها الملل والوحشية والإحساس بالغربة. وبالرغم من وصولها إلى العام الثانى والأربعين؛ فهى ما زالت تعيش بمشاعر فتاة مراهقة، فلم يكد زوجها يسمح لها باصطحابه إلى القاهرة حتى شعرت أن قيوداً مرهقة قد انحلت عن ساقيها، كانت تمضى كالغزال الرشيق، وهى تتشرب كل ما يقع عليه بصرها فى عشق، وتقوم ببعض أعمال لا تفسر لها إلا أنها تعبر عن رغبتها فى الانطلاق والتحرر كتجرع زجاجة كوكا كولا من بائع جوال، وشراء بعض المجلات المصورة، ورواية غرامية وكرغبة فى إملاء إرادتها، وإثبات وجودها الحر، ترفض العودة مع زوجها إلى أبى زعبل بعد زيارتهما الأولى للقاهرة شاعرة بالارتياح بعد رحيل زوجها بدونها. والكاتب يصور زلتها تصويراً دقيقاً، فهو يعبر عن أحاسيسها بعد ارتكاب الفاحشة

وتبريرها لجريمتها الأخلاقية من خلال «مونولوج داخلى» رائع :
«هى تعلم الآن لماذا يهفو الناس إلى الخطيئة ، ليس الجوع وحده هو الذى يغرى باختلاس الطعام ، الخطيئة فى حد ذاتها لها إغراء لا يمكن مقاومته فى بعض الأحايين ، ولها نكهة حريفة تفتح الشهية» ، وهى عندما توطد نفسها على الخطيئة فإنها تعد نفسها لها إعدادًا خاصًا ، فهى كما تقول : ستعيش فى أبى زعبل ، وستبتسم فى وجه زوجها وتضمن له الطاعة العمياء فى ظاهر الأمر ، ثم تفعل ما تشاء بعيدًا خلف الستار ، وهكذا ازدوجت شخصيتها فهى أمام الناس الزوجة الطائعة الوفية التى يمدح الناس سلوكها ، ويثنون على رقتها وأدبها ، وهى فى الخفاء أمام «فارس» الخاطئة التى لا تعرف للشرف معنى ؛ ولا للطهر والعفاف مدلولاً ، والتى يصل بها الأمر فى سبيل شهواتها أن تفكر فى قتل زوجها حتى يخلو لها مع عشيقها الجو .

وبهذا يكتمل التكوين النفسى «الداخلى» لهذه المرأة ، التى تعيش بالقرب من عالم السجناء وكأنها واحد منهم تمامًا . وهكذا تستوى هذه المرأة أمامنا بشرًا سويًا ، بفضل ريشة الدكتور نجيب الصناع .

أما «فارس» كما صور الكاتب شخصيته ، فهو الشاب الذى دفع أهله إلى القتل أخذًا بثأر أبيه ، فيزج به فى السجن ، حيث يعيش فيه حياة ضائعة ، يكتنفها القلق والسأم والضياع . وهو يفكر فى الهرب ، ويرسم الخطط ، وينام هادئًا والأمل فى الخلاص يملأ أحلامه حتى إذا انبلج الصبح ذابت أمنياته ، وشاعت الحسرة فى قلبه . وهو إنسان لم

تسلبه حياة السجن شعوره بالكرامة تمامًا، فهو يشعر بالأسى حين يحس أن زوجة المدير (فى أول الرواية) قد رمقت السجناء بنظرة احتقار، وهو يعتدى على الشلقامى! ويقذف بطبق الفول المدمس فى وجهه، عندما يقذفه بالرغيف شاتمًا «كلاب أولاد كلاب». وهكذا عاش فى السجن حتى طلعت على حياته عنايات هانم، حينما ذهب إلى منزل البك المدير لأول مرة مصلحًا النور الكهربائى، لقد صدمته كلمة (تفضل) التى نطقت بها، فهو دائمًا مسرق العصا متلق للأوامر لا يعامل كإنسان. ويعرف فارس لونًا جديدًا من الأرق، ويتخيل نفسه مديرًا للسجن يبصق فى وجه الشلقامى ويركله بحذائه اللامع، وأخيرًا- وهذا هو المهم- زوجًا لعنايات هانم الفاتنة.

ويلتقى بزوجة المدير لقاء آثمًا ويعيش نهب الشعور بالذنب، ومع ذلك فإن شعورًا خبيثًا بالانتصار يطفو على السطح. . أو ليس هذا الذي حدث هزيمة للبك المدير. وفى المرة الثانية التى يلتقى فيها بزوجة المدير كانت نوازع الخوف ووخزات الضمير لا وجود لها، وتفخم هذه العلاقة شعوره بالكرامة، ومن ثم فهو لا يود أن يظهر أمام محبوبته بمظهر الذليل، ولهذا فهو يحاول الاختفاء منها حين تزور السجن حتى لا تراه فى هذه الصورة المزرية، وهو يشعر بجرح بالغ لكرامته حين يهوى عليه العسكرى بالسوط أمامها، وعندما ينكشف الأمر ويعرفه كل من بالسجن، تتشح أحلامه بالسواد، وينشب الخوف والعذاب مخالبهما فى قلبه، وإنه ليتساءل: «لماذا

قَتَل؟ لماذا جاء إلى السجن؟ لماذا وقع بين ذراعى عنايات هانم؟»
وعندما لا يجد الجواب تستبد به رغبة فى الفرار، فى الهرب من الناس، الانزواء فى زنزانته حيث يأمن النظرات القاتلة والهمسات المشينة، هناك حيث يجد الهدوء والراحة، ولكن هيهات، إنها مأساة الإنسان وقدره، وصورها الكاتب الشاب بصدق وإخلاص.

وشخصية «الشلقامى» الباشسجان، طاغوت السجن، والذى يسوم السجناء صنوف العذاب، حتى إنه لا يتورى عن الاعتداء على سجين عجوز. هذا الشيطان الذى لا يفكر فى أخذ يوم عطلة- على حد قول المسجونين- والذى لا يعرف الرحمة، يعتبر السجن عالمه الأوحد الذى يؤكد فيه ذاته، ويشبع فى نفسه غريزة السيطرة داخله. هذا الطاغى المتجبر جبان برغم قسوته، فهو عندما اعتدى على السجين الشيخ نظر فوجد كل المسجونين ينظرون إليه فى حقد، فتطلع إليهم فى فزع «لو رماه كل واحد بحصوتين لخر صريعًا» وداخله رعب، أيفر؟ ستكون هذه نهايته!! وفكر فى أن يستنجد بزملائه، ورؤسائه من الضباط، ولكنه أدرك بدهائه الفطرى أن خير علاج للموقف هو التمادى فى القسوة، ومن ثم فقد انهال على السجين المسكين ضربًا وركلاً وهو مجرم بالفطرة، وما قسوته على السجناء إلا تعبير عن هذا النزوع الإجرامى الكامن فى نفسه، تنفس عن الشر المتأصل فى أعماقه، وإنه ليقدم على الجريمة بالفعل، حين يقبل أن يكون أداة التنفيذ للحكم بالإعدام الذى أصدره المدير على السجين فارس.

أما «شخصية الشيخ سلامة» فهى حقًا من الشخصيات القصصية النادرة إنها ولدت ومعها وثيقة البقاء، شهادة بالخلود، وإن الأديب الشاب ليستحق التهنئة لابتكاره هذه الشخصية الفذة. الشيخ سلامة، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة؛ لأنه قتل أخاه من أجل الميراث، والذى شهدت عليه زوجة أخيه «نبيهة بنت حسن عرفات». هذا الشخص الملتات الذى يعيش داخل السجن حياة عجيبة، إنه يرجع كل مصائب العالم إلى «نبيهة بنت حسن عرفات»، فهى وباء وريح صفراء ويهودية بنت يهودى. إنه يزعم أنها اتفقت معه على قتل زوجها، ثم شهدت ضده.

إن جميع المصائب التى تحدث فى السجن بسببها؛ فهى وراء الاعتداء على الشلقامى، وهى وراء اقتراف فارس للفاحشة، وهى وراء مصرع فارس، وهى لا تتمثل له فى الواقع فحسب، بل فى الحلم أيضًا، فقد رأى حلمًا عجيبًا مؤداه أنه كان هو وفارس وعبد الحميد يركبون زورقًا والظلام دامس والرياح عاصفة، وكانت وجوههم سوداء مثل الزنوج وكان البحر واسعًا لا شطآن له ولا أعماق، وتأتى نبيهة بنت حسن عرفات ماشية على الماء، وسرعان ما ينطلق منها الريح الأصفر، فتدفع بالزورق فى عصبية ويغرقون.. شخصية غريبة، فريدة السمات تستطيع أن تقف إلى بعض شخصيات نجيب محفوظ ذات الطابع الشاذ كزيطة صانع العاهات وأضرابه.

هناك بالطبع شخصيات أخرى كثيرة، كشخصية عبد الحميد رفيق فارس والشيخ سلامة فى الزنزانة، وهناك أم عنايات وأبوها، وكل هذه الشخصيات استطاع نجيب أن يصورها من الخارج والداخل على السواء، حتى لقد باتت شخصيات حية بحق، فهى تكاد تنبض بين السطور بالحياة وتتحرك ساعية على الأقدام لفرط ما بثه الكاتب فيها من ضروب الصدق الفنى.

ولنا عند الأسلوب وقفة: أسلوب السرد ممتاز، فيه رقة وعذوبة وسلاسة والكاتب يستعمل الشعر خلال السرد بذوق، وفن، ولا غرو فالدكتور نجيب شاعر لنقرأ هذا النموذج «ووراءه الصمت والجمود اللذان يلفعان كل شىء . . . باقة الورد على منضدة الطعام، قد ذبلت ومات عبيرها، حتى سرير النوم بدا له كنعش كبير مفروش بالأكفان، وقميص نومها على المشجب ينساب على الحائط كدمعة الذكرى الحزينة».

وختام الرواية « . . . وفى الليالى السوداء، يجلس السجناء القرفصاء، يتحدثون عن ذكرياتهم، وعن زوجة أحد المديرين الحسناء، تلك التى عشقت سجينًا، وعن الباشسجان عبد المأمور، وعن عالم العبيد والضياع الرهيب». بهذا اللحن الحزين، وبهذه الرفقة الشعرية يغلق الدكتور نجيب قلمه، ويطوى أوراقه، فقد انتهت القصة واكتملت خيوط «تراجيدية حديثة»، أنهاها شعراً؛ فملحمة الضياع لا يمكن أن تنتهى إلا شعراً.

والحوار برغم أنه مكتوب بالفصحى؛ فلم نشعر بذلك، إنه مرن وسلسل وعذب وفيه طواعية؛ ويتمشى مع مقدرات الشخصية الثقافية إلى حد كبير، إلا أنه فى مواضع قليلة كان يرتفع عن مستوى المتحدث الثقافى..

«تمتم فارس فى يأس: لماذا خلق الله الجبل؟ ورد عبد الحميد فى سخرية ليفني فيه الحمقى من أمثالنا.

ولماذا خلق المدير؟ وقهقه عبد الحميد: لأنه عندما خلق الكرباج كان لا بد أن يوجد من يهوى به على الظهور. وصمت برهة ثم استطرد: أنت غبى، تسأل دائمًا عن أشياء أزلية لا حيلة لنا فى تغييرها».

ونموذج آخر: الحوار بين الشلقامى وفارس بعد معرفة الأول بارتكاب الثانى للفاحشة: الشلقامى: أجب عن سؤالى.. قد أحميك مما ينتظرك.

فارس: وما فائدة أن تعرف؟

- «تمامًا كمن يقول وما فائدة أن تأكل؟

- ليست الفضيحة غذاء.

ومن عيوب الحوار أيضًا أنه كان- فى أحيان قليلة- ينطق الشخصية بكلام لا يمكن أن يصدر إلا عن متخصصين. من أمثلة ذلك تعقيب عبد الحميد على الحلم الذى رآه الشيخ سلامة، فعندما

يقول: «إن نبيهة قد دفعت الزورق فى عصبية، وهكذا غرقنا، وكتم الماء أنفاسى حتى أوشكت على الموت، وهكذا صحوت مذعوراً»، ويرد عليه عبد الحميد، معللاً هذا الكابوس كأحد المحللين النفسيين قائلاً: «لا شك أنها أزمة ربوية فى صدرك».

وفى الحوار لمحات ذكية تدل على مقدرة وبراعة، من أمثلة ذلك رد عبد الهادى بك على زوجته عندما سألها عن فارس، فردت بأنه الكهربائى الذى جاء ليصلح خلل الكهرباء. إنه يقول: «إنه هو، لكنه لم يصلح خللاً، بل أفسد ما لا تستطيع أكبر قوة فى الوجود أن تصلحه». والإشارة هنا إلى الشرف ذكية وبارعة.

والكاتب يستعمل «المونولوج الداخلى» فى قصته تلك كثيراً ببراعة، لنقرأ هذا النموذج يدور فى أعماق «عنايات هانم» (- يجب أن تنسى شيئًا اسمه الضمير، يجب أن تنسى أنها تعشق سجينًا، حقيراً من الطبقة الدنيا، وسفاحًا من الطراز الأول، ومن الضرورى أن يأكل فارس هذه المرة، ويشرب ويتكلم ويكون شجاعًا، وهى تستطيع أن تجعل منه شجاعًا، وأن يتصرف وكأنه فى بيته، ولا يفكر مطلقًا فى سعادة البك المدير).

ولا يصح أن نترك الحديث عن الأسلوب دون أن ننوه بحسنة من حسناته، ألا وهى دقة الوصف، فالدكتور نجيب يرسم صورة وصفية دقيقة لمسرح الأحداث فى قصته ولنقرأ معًا هذا الوصف الرائع الدقيق

للسجن: «وفى داخل السجن بدا كل شىء كئيبًا، البناية الصفراء ذات النوافذ الصغيرة، والمطبخ البدائى ذو المدخنة التى تتقيأ دخانًا أسود كالحقد، حتى حوض الأزهار خلف مكتب المدير تقف زهراته فى جمود يثير الأسى، الضوضاء المنبعثة من ورشة النسيج والنجارة والسمكرة، ضوضاء قاتلة- وكأنها أجراس مبحوحة فى سوق للرقيق، وهؤلاء الذين يروحون ويجيئون فى فناء السجن لا توحى مظاهرهم الشاحبة بغير الضياع والجفاف والوجوم».

صورة وصفية دقيقة للسجن، ويالها من صورة!!

●●●

وأخيرًا فإن هناك نقطتين ما زالتا تثيران الكثير من الجدل بين النقاد لنر أولاً ما هما هاتان النقطتان، ثم لنر ثانيًا ما موقف كاتبنا الشاب فيهما.

النقطة الأولى: قضية الالتزام فى الأدب؛ والتى كثيرًا يضحى الأدباء فى سبيلها بكل جمالية العمل الفنى؛ وما يمكن أن يحدثه فى نفس القارئ من إمتاع، أعنى التضحية بالفن من أجل الهدف الاجتماعى:

إن الدكتور نجيب يحسم هذه القضية حينما يقدم لنا بقصته تلك عملاً ذا أهداف اجتماعية واضحة، وممتعًا فى الوقت نفسه، وهذا هو شرط العمل الفنى الناضج: أن يمتعنا بشكله الفنى أولاً فَتَحَقَّق

شرط الفن كفيل بإساغة الهدف الاجتماعى الذى ينشده الكاتب من عمله، أما هؤلاء الأدباء الذين يقدمون قضية- مهما كانت خطورتها - من خلال أعمال فنية هزيلة، فإنهم يحكمون على قضيتهم بالموت، فسقوط العمل الأدبى فنيًا يعنى بالتالى سقوط القضية، ما داموا يكتبون أدبًا في الاعتبار الأول، وإلا فكتاب اجتماعى مباشر أو بحث سياسى أجدى من هذا التمويه.

أما النقطة الثانية: فهى قضية (الرمز) فى الفن، وبعض الأدباء يسرفون فى رموزهم بحيث يتحول العمل الفنى إلى لغز كبير تحار فيه الأفهام ربما يكون من أهم عوامل نجاح العمل الفنى أن يحتمل أكثر من تفسير ولكن أن تكون الرموز معقولة، وعلى أن تكون للعمل الفنى- إلى جانب الرمز- صورته البسيطة التى يستطيع أن يفهمها القارئ العادى.

والدكتور نجيب يقدم لنا خلال هذا العمل قصة ذات أبعاد واقعية واضحة، مع إمكانية تعدى هذه الأبعاد الواقعية إلى عديد من التفسيرات الرمزية. والقارئ العادى يستطيع أن يقف عند جانبها الواقعى، أما القارئ المثقف فيستطيع أن يجد فى القصة وشخصياتها أكثر من تفسير. فالسجن يمكن أن يكون رمزًا لحياتنا قبل الثورة، السجن الكبير الذى كان الشعب يعيش فيه. كما أننا نستطيع أن نفسر كل شخصية من شخصيات القصة - بعد تخطى

أبعادها الواقعية- تفسيرات رمزية عديدة: فارس، عنايات، المدير، الشيخ سلامة، الشلقامى، نبيهة بنت حسن عرفات، كل من هذه الشخصيات يستطيع الناقد أن يخرج منها بعشرات التخريجات الرمزية، وربما لجأت إلى هذا فى بحث مستقل.

وبعد، فإن المرحلة التى قطعها الدكتور نجيب الكيلانى- حتى الآن - من رحلته الفنية التى بدأت بقصته «الطريق الطويل» ووصلت حتى هذه القصة التى بين أيدنا لجديرة بالتأمل، ولا شك أن الفرق بين الأولى والأخيرة ليمثل المستوى الفنى الذى بلغه أديبنا الشاب الآن، فنجيب الذى بدأ حياته الفنية فى (الطريق الطويل) بموضوع ضخم، وشكل متواضع، هو الذى استطاع بعد استكماله لأدواته الفنية أن يقدم لنا بقصته الأخيرة عملاً فنيًا يتعانق فيه الشكل والمضمون فى سبيل تقدم بناء فنى متماسك جدير بالتقدير.

والسؤال الآن: هل هذا هو المستوى الذى ننشده من نجيب؟ لا أظن فما زال الطريق أمامه مفتوحًا، وما عليه إلا أن يسير فيه نحو بناء أكمل، وفنية أدق.

عبد المنعم عواد يوسف

●●●